
عبد الحميد بن هدوقة
الجازية والدراويش
رواية
أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
scanned by
jamal hatmal
دار الآداب

الجازية والدراويش

عبد الحميد بن هدوقة

الجازية والدراويش

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى :
الجزائر ١٩٨٣
الطبعة الثانية :
دار الآداب
١٩٩١

الجازية والدراويش

قبل ميلاد الزمن :

قبل ميلاد الزمن كان الجبل
وكانت العين
وكان الصفصاف

❊ ❊ ❊

ومع ميلاد الزمن
ولدت الجازية
والدراويش
و«السبعة»
والرعاة
والشامبيط .
وهكذا بدأت القصة . . .

الزمن الأول:

- 1 -

أدار السجان مفتاحاً غليظاً في القفل. دفع الباب أمامي وقال متهكّماً: «حظّك سعيد، معك في هذه الحجرة شاعر. نُقل إلى المستشفى للفحص، ثم يعود».

أدخل.

يغلق الباب من ورائه بعنف كما فتحه. ينصرف بخطى متّزنة غليظة الوقع.

بالحجرة سريران قَذِران.

أجلس على أحدهما.

لا أفكر.

أصبحت سجيناً. لي رقم. أقيم بحجرة لها رقم. . .

رقمي سبعة. رقم الحجرة أيضاً سبعة!

بالقرية جامع يدعى «السبعة»!

لا أفكّر.

أنا محظوظ. رقمي يعدّ أولياء الجامع وأيام الأسبوع!

أُقيم في حجرة مع شاعر!

الأبرياء والشعراء يُسجنون! لكن من قال بأني بريء؟ أنا وحدي الذي أدّعي البراءة.

لا أفكّر.

أتأمّل الجدران، السقف، القاعة... الأحلام والآمال صارت أوساخاً!

المستقبل هنا هو النظر إلى الوراء!

على الجدار المقابل لسريري نقشت أرقام وصور وعصيّ صغيرة كالألفات. معلّم الكتّاب قال لنا ذات يوم: «الألف عصا لمن عصى»!

الواحد يساوي عصا...

تبتدىء الألفات ـ العصيّ من الجهة اليمنى للباب. تمضي متتابعة على جدران الحجرة، ثم تتوقّف قبل أن تصل إلى الباب. كأنها أوقفت فجأة!

أتأمل الرسوم «البورنوغرافية»: قلب يخترقه سهم. قلب تعصره أصابع. قلب يتقاطر دماً. أعضاء تناسلية.

شمس بلا سماء!

أحاول أن لا أفكّر. أقتلع الذكريات من رأسي وأرمي بها على السرير المقابل. أعدّ الألفات المنقوشة بالأظافر على الجدران المحيطة بي، أتلهّى بها. يختلط العدّ في ذهني.

أقوم. أمسك بقضبان نافذة الباب الحديدية. أجذبها إليّ لا تنجذب، أدفعها لا تندفع.

يناديني صوت من أعماقي: «لا بدّ أن تقاوم».

أعود إلى السرير. أجلس. تقابلني من جديد الألفات ـ العصيّ التي لم تصل بصاحبها إلى الباب. . . .

وتقابلني الجازية كتمثال ضخم، يملأ الفضاء!

أحاول أن أتلهّى بهزّ السرير القذر منن تحتي. يتشكّل اهتزازه الجافّ صوتاً لجلّاد لا أعرفه!

ينطلق الصوت من أعماقي مرة أخرى أكثر وضوحاً وأكثر حدّة: «لا بد أن تقاوم. حاكم السجن واحد في كل مكان. والسجن واحد في كل مكان! ما الفرق بين القرية والسجن؟ الشامبيط هناك والحارس هنا. . .».

تقوم الذكريات في نفسي. تضع أمامي القرية والصفصاف. العين والفتيات. جامع السبعة والدراويش. الطالب صاحب الحلم الأحمر والجازية!

آه من الجازية!

أرى أمي التي تتكلّم بلا صوت أمام أبي. أرى مناجل الفلّاحين والدراويش. أرى الشامبيط آتياً إلى الدشرة مع المتطوّعين. . .

ثم أراه يقودني إلى الدرك. يضع الدركيّ القيد في يدي ويقول: «القانون»! القيد قانون!

أنظر من جديد إلى الألفات المنقوشة على الحائط المقابل. أراها متساوية، متتابعة تتابع المساجين أثناء الحركة الرياضيّة اليوميّة!

أحاول أن أمسح ببصري الجدران من كل رسومها، لأرسم القرية... أنا! أتذكّر، أنا لست بيكاسو. منفاي داخلي. عشيقتي ليست جمهورية، هي فتاة قُتل أبوها بألف بندقية، أراد أن يخطبها لي أبي لئلا يتزوّجها ابن الشامبيط... الطالب الحالم لا يعرف أشراك الشامبيط.

يدوّي النبأ في سمعي: «مات الطالب ـ الدرويش! عثر على جثّته أسفل «عين المضيق»! دفعه مجهول، أو عثَر... سقطَ على صخرة»!

يذهلني النبأ! أجري إلى المكان. هناك أشاهد الجثّة على صخرة، أسفل المضيق بنحو عشرين متراً. العينان مفتوحتان تحلمان بشمس لن ترياها أبداً!

يا للرزيّة!

ويعلو الصوت من جديد: «لا بدّ أن تقاوم. الحلم بالماضي حنين إلى الظلام. الموات لا يعطي حياة. الظلال ليست كلها بنفسجية... الحلم الحقيقيّ مشروع تنجزه اليدان. ذلك هو الحلم، والباقي كوابيس تتخذ أحياناً صور الأحلام»!

تخطر بذهني آية عظيمة من قرآن عظيم:

﴿**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**﴾!.

ما أروعها آية! تعلن للدنيا أن القدر لا يُكتب أبداً قبل وقوعه! تعطي للإنسان حرّيته وتضع مصيره بين يديه! تسمو به إلى عظمة المسؤولية! «لا بد أن تقاوم»!

«الافق الشمالي ليس أزرق لأن السماء زرقاء. المغامرة هي التي مكنته من احتضان أحلام البائسين أمثالك».

«تستطيع أنت أيضاً أن تغامر. تجعل المياه تسيل في الأراضي الخصبة، بدل الضياع على الصخور والصلد».

وأقول في نفسي: ما أغبى الجازية! تحلم بالمستقبل في أرض زمانُها ماضٍ مستمرّ! ينبغي إغراق الماضي أولاً. إغراق الدراويش، إغراق «السبعة»، إغراق القرية بسدّ تبنيه الأيدي العارية، لكي تبدأ حياة أخرى في قرى أخرى، تلد رجلاً جديداً من الصفر. لا يعرف الشامبيط، ولا قيد الدركيّ، ولا الدراويش!

قبل الإغراق لن يتحقّق شيء. مناجل الدراويش وكلّ المناجل رمز لحصاد لن يتحقّق أبداً.

تتراكم الذكريات. تتراكم المشاهد. . .

أشعر بالدوار.

يجب أن أقتلع الذكريات من كل خلية في رأسي، من كل كريّة في دمي. أقتلع معها المشاعر. أقتلع أحلام الماضي، أرمي بها على صخور الدشرة. في مقتل رفيقي الطالب الحالم.

أقتلع حبّي من قلبي، أرمي بـه في شـارع من شـوارع المـدن الملعـونـة، حيث الأرجـل والعـربـات تـتزاحم عـلى الارتـطام بالمتسوّلين وماسحي الأحذية. أرمي إلى الهاوية البررة والفجرة.

أفتـح عينيّ بأصـابعي لتمتلئـا بكـل أوسـاخ الأغنيـاء وشرور الحكام!

لكن حبّـك يقوم من جـديد في نفسي، عنيـداً قـويـاً. يبعث أمامي شبابي وشبـابك. وأعشق الحلم. وأتجـدّد. ويتّسع حنـاني لبؤساء الدنيـا. وأؤمن بما يؤمن بـه الضعفاء أمثـالي وأرى الآمال الـزرقاء تنـطلق من عينيك، تمـلأآفاق مـطامحي. أهيم وراءها. أروي ظمئي إلى شبـابـك من عينيـك. أشرب المستقبـل من نظرتك. أرفع الستار عن الجنّة ليراها المحرومـون. أعطي القـوة للضعفاء. أنتصر للمخذولـين. أمنح الاكـواخ والمدن الثـالثة في كـل المـدن، فيضـاً من حبّي. وتعـظم نفسي في نفسي. ويعـظم حبّك!

عند الصفصاف ذات عشيّة. . . أتتذكّرين؟ كانت آخر عشايا عـطلتي الصيفيّة بـالدشرة. سـألتني، لماذا الصفصـاف طـويـل؟ أجبتك، لأراك من بعيد!

لم أكذب.

الصفصـاف هو أول جـزء من الدشرة آراه وأنـا قادم إليهـا، وهو آخر جزء من الصورة يبقى في عيني وأنا مسافر منها.

الجامع أيضاً يُرى من السهول البعيدة، قبل أن تلتوي الطريق.

لكن عينيّ تتعلّقان بالصفصاف. تعارفنا عنده طفلين... أتتذكّرين؟ يوم أن كان الشامبيط والسوط لفظين لحقيقة واحدة!

اتفقنا دون أن ندخل في حسابنا الشامبيط والدشرة والدراويش والطالب المتطوّع صاحب الحلم الأحمر....

كنت صغيرة وكنت صغيراً، كنت صغيرة، رغم عمر آلامك الطويل الممتدّ في أعماق الزمن الماضي!

كانت عيناك يتجلّى فيهما شبابك الغضّ عندما تضحكين ويغمرهما حزن رهيب عندما تفكّرين!

فيمَ كنت تفكّرين؟

اتّفقنا.

أقسمت أن لا ترمي في الوحل ذكرى أبيك الشهيد، وذكرى أجدادك المقاومين. تحدّثنا طويلاً عن المدينة ومدنيتها الغريبة عنّا. قلنا: فيها عمرنا يضيع في تعلم ما لا نحتاج إليه. فضلنا قرية جديدة نبنيها. ونبني فيها حياتنا الجديدة، تكون النقطة الأولى في الاتجاه الجديد...

ثم ماذا؟

ثم جاءت أنباء ابن الشامبيط الذي يقرأ في آخر الدنيا: في أمريكا!

عندما كثر الحديث عن قرب رجوعه، قال أبي مبتسماً: إن المدرسة وطن ثان!

ثم جاء الطالب صاحب الحلم الأحمر. . .

ثم جاء الشامبيط ليقودني إلى الدركيّ الذي وضع القيد في يدي وقال: «القانون»!

أقوم من مكاني، أمسك القضبان مجدّداً. باب السجن كالقدر، لا يزعزعه أحد! ويناديني الصوت من أعماقي: «لا بدّ أن تقاوم. السجن يمكن هدمه، ليس بالديناميت فقط، بل حتى بالأظافر»!

«القرية الجديدة ينبغي أن تُبنى».

«بوسعك أن تثير إعصاراً! جدّد عزمك بالحقد!

القرية الجديدة!

من يبنيها!

أبي قال ذات يوم ونحن نتحدّث عن القرية الجديدة: «لو أكون في السماء لكفاني أن أغمض عيني لأجد نفسي هنا، في الجبل! أنت وأمثالك لا تفهمون شيئاً لحياتنا. . . للإنسان جذور تربطه بالأرض كالشجرة. هل يمكن لشجرة أن تحيا بلا جذور؟».

أجابت أمي: «لا، أبداً»!.

تابع حديثه ليقنعني بالتخلّي عن فكرة القرية الجديدة: «القرية

الجديدة يفكر فيها أناس يسكنون في أدوار لا ارتباط لها بالأرض»!

حاولت أن أقنعه، بدوري، أن قريتنا القديمة معتمة دوماً بالضباب. تنعدم فيها الرؤية.

أجابت أمي: «الشجرة لا تهرب من عروقها!» أعادت الفكرة...

تكلمت حجيلة أختي: «أنا أعاونك في البناء. أعدّ الاكل، أسقي الماء، أقوم بكل الأعمال التي لا يقوم بها الرجال»!

أخذ أبي بندقيته المعلّقة بالحائط. فتحها. نسف في فوهتيها، ثم أغلقها وأعادها إلى مكانها.

حاولت حجيلة أن تواصل حديثها، نهاها. ليس للبنت أن تتكلّم أمام الرجال.

أكّدت أمي نهيه لها بكلمة ملتصقة دوماً بلسانها: «عيب»!

لكن أختي كانت لجوجاً. أعادت الكرّة تؤيّد فكرة بناء القرية الجديدة: «عندما يتمّ بناؤها، نذهب نحن أولاً ثم عندما تأخذ حياتنا مجراها الطبيعيّ تلتحقان بنا (تعني أبوينا) أنا كرهت كل شيء في هذه الدشرة حتى نفسي»!

كان أبي ينظر إليها وهي تتحدّث. لم يقل شيئاً، لم ينهها. كان ينظر إليها فقط! لما انتهت من حديثها، أمسكها من يدها وقادها إلى المراح. لم نفهم ماذا يريد أن يفعل. أمّي ظنّته أخذها

ليربطها في السلسلة الحديدية مع الكلب، كعادته. قالت له تستلطفه: «دعها تتحدّث. ما هو إلا حديث»!

قمت فالتحقت بهما. وجدته يشير إلى الجبل، والجبل والصفصاف يريان من المراح. قال لها: «انظري إلى الجبل. إنه عالٍ، أليس كذلك؟ الناس يصعدون إليه إذا أرادوا بلوغ قمّته لا يهبطون. كذلك نحن، حياتنا في دشرتنا صعود، ليست هبوطاً»!

هزّت أختي كتفيها وعادت إلى البيت. لم تفهمه.

لا بد أن تفهمي يا أختي الساذجة. أبونا عندما يتحدّث عن المدينة، يقول: «نهبط». يعني: نتّضع! دشرتنا جدّ عالية. أبي صادق في تعبيره. المشكلة ليست في الهبوط إلى المدينة. إنما الصعود بالمدينة إلى الدشرة هو المشكلة. كل خطوة نحو الدشرة ينبغي أن تقع فوق أختها، كالبناء. والصعود إلى الدشرة بالمدينة بناء. لكنه لا يتحمّل ثقل المستقبل. لذلك لا بدّ من بناء قرية جديدة!

أبي في الحقيقة جزء من الدشرة ومن الجبل. هو والسكان حياتهم مؤسّسة على ماضٍ سحيق. فكلّ تغيير جذريّ يستلزم تلغيم الماضي.

الطالب صاحب الحلم الأحمر قال ذات يوم، متحدّثاً عن السكّان: «إن رؤوسهم جدّ صغيرة. لو وُضعتْ فيها أفكار كبيرة انفجرت»!

ثم نسي كلماته . . .

أنا أيضاً رأسي صغير، كالقرويين، بدل أن أفجّر شيئاً، رحت أدور حول الصفصاف كشعراء الجاهلية! وخاصة منذ أن قالت لي الجازية: «الصفصاف يشهد على أني أحبّك»!

لم أجد عندئذ ما أقدّمه لها سوى الكلمات المذهّبة بعواطفي النبيلة. قلت لها: «حبّي أنا لك لا ينضب، كهذه العين التي تسقي الصفصاف سأسقي كلّ لحظة من حياتك بفيض من الحنان متجدّد أبداً».

لكن عندما جاء الأحمر، الطالب المتطوّع صاحب الحلم الأحمر، لم يتحدّث أمامها عن حبّه. تحدّث عن عيونٍ تسيل إلى أعلى، عن شموس تخرج من الأرضٍ، عن مناجل تحصد الأشعّة، عن مستقبل يتّجه كلية إلى المستقبل! . . .

فاهتزّت مشاعرها اهتزازاً عنيفاً. وانفتحت في خيالها الجبليّ الصغير منافذ خطيرة، لآفاق ورديّة رحبة. أنستها الصفصاف والعين الجارية في أحشائه. أنستها أيضاً كلمات الحبّ الشفافة التي سالت حوله . . .

حدّثتها بحبّي، وحدّثها بمشاريعه.

غلبت مشاريعه حبّي!

قصّتي تُحكى بكلمة، لكن أنا أحكيها بآلاف الكلمات لو استطعت. أعطيها ألواناً ما فوق قزحية. أرويها لهذه الجدران، كما روى لها من سبقوني قصصهم. أحكيها كهذه الألفات

المتتالية التي بدأت من الجانب الأيمن للباب وانتهت قبل أن تصل إلى الجانب الآخر. سألت السجّان عنها، ردّ باقتضاب وحدّة، كأن مقصّاً وُضع على شفتيه، لتخرج الكلمات مقصوصة حادّة بلا شفقة: «مات قبل أن يصل إلى الباب»!.

أيّامه لم تصل به إلى الباب!

ترى ماذا كان يضع في هذه الألفات من أمانيّ؟ لا شكّ أنه لم يعد بها الأيام مجرّدة عن مآسيها وأحلامها. إنه يبدو صاحب مشروع ضخم. ألفات متتالية مستقيمة نقشها بأظافره على الجدران، لم يعد بها الأيام وحدها!

بدا لي أن أسأل السّجان عن زمن صاحب الألفات، لكن بعد التأمّل عدلت عن ذلك. لِمَ السؤال؟ الفرق بين سجين وسجين هو الوصول إلى الباب أو عدم الوصول. وهو مات قبل أن يصل إلى الباب!

إنّ ألفاته هذه الغامضة أروع من كل القصص المكتوبة. أروع حتى من سيف شهريار الذي كان يقتل به الفتيات لإخفاء عقدته الجنسية!

بالأظافر نقش أيامه بالسجن!

السجّان قال ذلك، وأضاف: «كان عنيفاً مع نفسه»!

أنا لا أعدّ أيامي هنا. بدل ذلك، أرحل الدشرة بحجارتها. بنسائها ورجالها. بزوابعها وشعاشعها. بدراويشها وسبعتها. بالأحمر صاحب الحلم الأحمر الذي زرع فيها الأحلام والزلازل.

ثم أفجّر كل ذلك بألفات صاحبي العموديّة، وبألفات ـ ديناميت أجعلها لحمة لسداه!

بذلك فقط تتّضح الرؤية في عيني، وأفهم كلّ ما جرى حتى وصلت إلى هنا بكل تلك السهولة... قادني الشامبيط وسلّمني للدركي. وضع هذا القيد في يدي وقال: «القانون»!

ضروريّ أن أعرف خفايا ما وقع. لماذا جاء الأحمر كمتطوّع مع الطلبة، وهو قد أنهى دراسته على ما قيل؟

لماذا عشقته الجازية من أول لقاء ونسيت في لحظة كل شيء؟

لماذا الشامبيط حاضر في البداية وفي النهاية؟ لماذا تحمّس لبناء قرية لترحيل السكان إليها ووهب قطعة أرض لبنائها؟ لماذا تحمّس لبناء السدّ؟ هل صحيح أن ابنه تستخدمه وكالة ذات خيوط ملتوية طويلة؟ هل بين بناء القرية والسدّ وبين تلك الوكالة علاقة؟ ضروريّ أن أعرف كل ذلك. إنني أجهل كلّ شيء! والغريب أنني لم أفكر حتى التفكير في هذه الأمور وأنا بالدشرة!

لا بدّ أن أرى الأشياء كما ينبغي أن أراها، لا كما أحبّ أن أراها. لو كان لي أن أختار لفضّلت أن يكتب القدر قبل وقوعه وأرتاح نهائياً. أترك الأمور تسيّرها أقدارها إلى أقدارها....

لكن القدر لا يكتب قبل وقوعه! **«لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»**!

الأحمر اختار أن يدخل إلى عقول الناس من عيونهم بدل الآذان! العين لا تتسع طفرة واحدة لدخول فكرة جديدة. تحدّث للناس عن عيون تسيل إلى أعلى!

عوض أن يُعينني أشقاني، ثم أفسد عليَّ الجازية.... بل أفسد كلّ الفتيات، حتى حجيلة وصافية!

الناس ينتظرون مشاريع خضراء وهو جاءهم بمشاريع حمراء! قال لهم لا تغترّوا بالخضرة، إن مثّلت الربيع فلن تمثّل النضج بحال!

ما أكبر كلماته!

قال له أحد الدراويش: «الماء يهبط من الجبل لا يصعد إليه»!

ردّ عليه الأحمر: «أنتم صعدتم إلى الفقر لم يصعد إليكم».

لم يعجب الدرويش هذا الكلام فاستعمل الهجوم: «نحن نصارع الطبيعة وأنتم تتصارعون فيما بينكم»!

كلمة جبليّة تساوي سنة جامعية!

المنطق الجبليّ لا تعرف صرامته آذان المدينة. خُلق من الصخر، نحتته قرون التعب والجوع والضباب...

التفّ السكان حولهما. استعذبوا الحوار. موقفهم من الرحيل إلى قرية تُبنى لهم، من الثورة، لم يكن في حاجة إلى طرح جديد. لكن الشامبيط قال لهم إن هؤلاء الطلبة أرسلتهم

الحكومة. كان يعتقد أن موقفهم من القرية الجديدة ومن السدّ، لا يختلف عن موقفه بل يؤيّده...

اذن، ما دامت الحكومة هي التي أرسلتهم فلا بدّ من الاستماع إليهم ومحاورتهم. والاستماع والمحاورة بالنسبة للقرويين لا يترتّب عنهما أيّ موقف. هما لون من ألوان التسلية. لأنهم يعتقدون أن دشرتهم لم تلدها الثورة، بل هي التي ولدت الثورة. صنعتها أيديهم والأفجار ما تزال علقاً في بطون الليالي!

تركت الأحمر مع الدرويش وبعض القرويين وعدت إلى البيت. كنت أشعر بالإرهاق والحزن، منذ أن لاحظت أن كلماتي أخذت تصغر في سمع الجازية، بينما كلمات الأحمر صاحب الحلم الأحمر أخذت تعظم أكثر فأكثر.

وجدت أبي جالساً على الدكة الحجرية قرب الباب. جلست مطرقاً. ساد الصمت برهة من الوقت ثم تكلم: «أنت لم تعد جبلياً. إني أراك تذبل شيئاً فشيئاً. ما ينتظرك، إن بقيت على هذه الحال، هو السقوط. أعرف علائم السقوط في الثمار والرجال. المدرسة التي كنت أظن أنها تقويك أضعفتك. صرت كثير التردد، ينبغي أن أجد لك رأياً»!

هو يتحّدث وأنا أفكر في أفق أزرق شفّاف... قلت في نفسي، سوف يتّضح هذا الأفق لا محالة، عندما ينقشع الغيم المتراكم عبر القرون على قمة الجبل. لكن المؤسف أنني لن أراه!

يموت الفلاح قبل أن يرى بذره ينبت!

كل الذين بذروا في هذه الأرض الطيّبة لم يروا بذورهم تتحوّل إلى نبات أخضر يانع!

ماتوا قبل أن يصلوا إلى الباب، كما قال السجّان. . .

من يدري، لعلّهم لم يحسنوا اختيار البذور الصالحة؟

الطالب صاحب الحلم أراد أن يبذر أحلاماً حمراء في رؤوس تنبت الماضي!

أنا أيضاً كنت واهماً. قلت للجازية ذات يوم، نغرس ورداً في قمّة الجبل. . . لم أفكر أن القمة لا تنبت سوى الضباب. الحياة ليست هناك. الجلمود لا يخصب. ما يسقط من أشعة عليه لا يغذّي شيئاً. يسجّل حياة الجبل ليس إلا. وحياة الجبل ما قيمتها تطول أو تقصر؟

البذر يصلح في الأراضي السفليّة السهلية، حيث الخصب والملايين البشرية المتصارعة على اللقمة!

ماذا أقول:
تؤلمني كلّ هذه الأشياء!
وتؤلمني أكثر ذكريات الجازية. . .
انتهت الحرب.
احتفلت القرية بالعائدين من الموت.
الجازية كانت في المهد لدى إحدى القرويّات الفضليات،
عائشة بنت سيدي منصور.
ماتت أم الجازية أثناء الوضع.

أبوها لم يعد من الحرب.
رفاقه قالوا، قُتل بألف بندقية!
لم يكن شخصاً، كان شعباً!

كلّهم يعرفون متى استشهد. لكنهم لا يعرفون قبره. لم يدفن في الأرض، دفن في حناجر الطيور!

طفولة الجازية مرّت دون أن يعرف أحد كيف...

وذات عشية، شاهد السكان فتاة عائدة من العين مع النساء، حسنها يملأ الدنيا!

عرفوها: إنها الجازية ابنة الشهيد!

بسرعة تفوق التقدير، انتقلت من الألسنة إلى الخيال الرحب. وأصبحت أسطورة!

كل الناس يحلمون بها، لكنهم يرهبونها. انها ابنة الشهيد الذي قتل بألف بندقية!

كانت أساطير الدشرة تتمثّل في «السبعة» والدراويش والصفصاف. ثم تخرج الجازية فجأة من الطفولة لتصبح الأسطورة ـ الحلم!

حام الرعاة حولها ثم تفرّقوا. خافوا أن يعود أبوها في صورة إعصار يهلك الضرع والزرع!

إن رجلاً يُقتل بألف بندقية، ويُدفن في حناجر الطيور لا تؤتمن روحه!

الجازية أخرجت الدشرة من سبات القرون. أعطتها حياة حافلة خصبة بدل حياتها الميتة.

تضحك صباحا فتنتشر ضحكتها أغانيَ عِذاباً في العشايا، تغنّيها الفتيات والرعاة.

ويعلم الناس أن الجازية ضحكت!

إذا سكتت هبّ الدراويش لإقامة زردة، استرضاء لها واستعطافاً!

أشيعت حولها ألف خرافة، تفوق ما شاع من خرافات حول الجازية الهلالية...

كانت غريبة الأطوار، لا تستقرّ على حال. عيونها تعد وتتوعّد! بسمتها ترتفع بالنفس إلى البعيد من السدم. لكنها كالنور قربها محرق!

كلّ الشبان يرهبونها ما عدا ابن الشامبيط...

لم يكن يريد منها بتولتها فقط، كان يريد أن يتوّج اسمه بهالة النور التي صنعتها بندقية أبيها ودماؤه! يريد مسح عار «الشمبطة» عن جبينه، كما قال السكان...

تقدّم إليها أبوه يخطبها، رفضته. أقسمت، إن أرغمت، أن تطلع إلى رأس الصفصاف وترمي بنفسها في الهاوية!

توسّل الناس إلى الشامبيط أن يتريّث. عساها أن تغيّر رأيها في المستقبل، عندما يعود ابنه نهائياً من أمريكا، وتراه رأي العين...

الشـامبيط ذكيّ. لم يرد إغضـاب الجازيـة والدشرة معاً. عـبّر للقرويين أنه لا يعارض الجماعة. كـلّ أمله أن تدرك الجـازية أن ابنه ليس كالآخرين. إنه يقـرأ في أمريكـا، في آخر الـدنيا! وإن أساتذته يملكون الأرض ومعهـا القمر! قـال لهم مرغّبـاً ومرهّبـاً: «إن واصلت رفضها واصلت شقاءها وشقاء الدشرة. ابنه ينـوي فعل الكثير من أجل القرية...».

تأفّف الناس من رفضها علانية، وفرحوا سرّاً!

ثـم أطلقـوا اشاعـات تتّصل بشرف الجـازية، عسى ذلـك أن يدفع ابن الشامبيط إلى الزهد فيها...

قالوا: إن الجـازية «تستضيف» الـرعاة في غفلة من مـربّيتها، وإنها أصبحت كصاحبة الراية في الجاهلية!

قالوا، إن الزواج فاتهـا نهائياً، وإنها لم تعـد تصلح إلا لممارسة التجـربـة... لكن الشـامبيط كـان يـرنـو إلى مـا وراء الأشيـاء العـادية... ولمـا لاحظ تـردّد ابنـه قـال لـه نـاصحـاً: حـذار من البقاء في أمريكا! أمريكـا لا تحبّ الخدم، تحبّ السـلاطين. بإمكانك أن تصبح سلطاناً، إذا اقترنت بالجازية»!

الجازية! يا للجازية!...

الزمن الثاني:

- 2 -

وصلت أخبار الجازية إلى المهجر. أخبار مزوّقة مفضّضة كأجنحة البراق! هام بها كلّ من أحسّ في عروقه بقيّة من قوة.

من بين هؤلاء عايد. شاب مثقّف ذو عزم، عاش بالمهجر منذ الطفولة. أبوه صديق حميم للأخضر ابن الجبايلي أبي الطيّب السجين...

نما عايد وترعرع، وترعرع في نفسه حبّ هذه القرية الجبلية التي تحيا فيها الجازية، والتي حدّثه أبوه عنها أحاديث عذبة رقراقة سما بها الحنين والشوق إلى مستوى الأساطير!

ذات ليلة والموت يقترب من سرير الأب المهاجر، سأل عايد أباه أن يوصيه. فتح الأب عينيه بجهد، ومدّ يده إلى ابنه. وضعها هذا في حنان بين راحتيه. خرجت من فم المريض الحروف التي تشكّل كلمة القرية متقطعة، لكنها واضحة، كما لو أن المهاجر استجمع آخر جهد بقي فيه وأفرغه في هذه الكلمة لتخرج واضحة مسموعة: القرية!

أقسم عايد لأبيه أن يعود يوماً إلى هذه القرية التي ملأ حبّها

حياته، وقضى بها أياماً عذاباً وهو في كفاحه الطويل الـذي انتهى به إلى المنفى!

كان قسم عايد أجمل عـزاء أغمض عليه الأب المهـاجر عينيـه الإغماض الأخير.

شـاعت أخبار الجـازية، وشـاع معها مـا وقع في الـدشرة من أحداث...

كلّ المهاجرين الذين يتتبّعون ما يجري في وطنهم سمعوا بمقتل الـطالب صـاحب الحلم الأحمـر، سمعـوا بسجن الـطيّب بن الأخضر الجبايلي، سمعوا باعتزام الشامبيط خـطبة الجـازية لابنـه الذي يقرأ بأمريكا!

لكن الأخبار لم تصلهم بخلفياتها ومداخلهـا وتعقيداتهـا... سمعـوا أن طـالبـاً مـدروشـاً ذهب إلى هـذه القـريـة، وراقص الجازية، خطيبة الطيّب بن الجبايـلي، فقتله هذا انتقـاماً لشرفـه. ومن ثمة خلا الجوّ للشامبيط.

شعروا بالحسرة أن ينجو هذا الشـامبيط من الموت، أيـام كان المـوت يساوي رصـاصـة، وأن يعـود إلى الشمبـطة بعـد انتهـاء الحرب، وأن يصفـو له الجوّ إلى درجة لا يطمح إليها أمثاله!

وهكذا وجد عايد نفسه يتأهّب للرجـوع في وقت لم يحدّده من قبل! كان عليه أن يسرع، أخبار الجازية طغت في أرض الهجـرة على كل الأخبار، وأحيت في نفسه أحاديث أبيه الماضية وذكرياته الطويلة. كما ملأت مشاعـره شوقـاً وأحلامـاً. خطيبهـا الشرعيّ

سجين والجازية ـ كما اعتقد ـ لا يمكن لها أن تنتظر مرور سنوات السجن الطويلة بدون زوج. ولا سيما أنها خطيبة، ليست زوجة. ولو لم تكن قابلة للزواج في نظر القرية، لما أقدم الشامبيط على خطبتها لابنه، أو هو بصدد الإقدام على ذلك... الأخبار التي وصلت إلى المهجر بهذا الخصوص ليست واضحة....

لم يفكر
رجع.
الجازية حلم.
وهو الحالم.

جاء إلى الوطن بسيارة فخمة ضخمة، استكبرها فيه الناس.. قالوا معرّضين به، إن سيارته لها أربعة أبواق!

لكن انتهت به الطريق المعبّدة في سفح الجبل!

اضطر للرجوع إلى القرية السهلية ليتركها هناك في أحد المستودعات.

علم الشامبيط بخبره، فاشتمّ فيه رائحة الطمع في الجازية. لذلك ما أن التقى به حتى أخذ يثبّطه عن الصعود إلى الدشرة. لم يكن يدري أن أبا عايد صديق حميم للأخضر بن الجبايلي. ولم يخبر عايد أحداً بذلك. ولما رآه الشامبيط مصمّماً على بلوغ القرية الجبلية مهما كان التعب، نصحه أن لا يحمل معه أيّ شيء من

أمتعته. قال لـه إنك لا تستـطيع أن تقضي بهـا أكـثر من ليلة أو ليلتين!

تركـ سيارته وأمتعته بالقرية السهليّة المركزيّة، وأستأنف طريقه راجلاً إلى الجبل. التوى به الطريق مصعداً دائماً إلى أعلى. خيّل إليه أنه كلما صعد زادت القرية ارتفاعاً!

أثناء صعوده المرهق شعر بالحاجة إلى الراحة، وهو يرى مكاناً ظليـلاً، بـالقـرب من جـدول رقــراق. جلس ليشرب ويـدخن سيقارة ثم يستأنف عروجه!

كان أحد الرعاة يترصّده منذ حين، ولما رآه جلس قرب «عين المضيق»، وهو اسم المكان الذي استراح به عايـد، ساق قـطيعه متّجهاً نحوه. لم يدر عايد كيف وجد نفسـه ممسكاً بعـرق شجرة بارز من بين الصخـور عندمـا داهمه القـطيع الـذي كان منـدفعاً كالسيل!

ضحك الراعي وهو يراه في هلعه ذاك، وقال له:

ـ لا تخف. إنك بعيد عن طريقها!

تأمّله عايد بغضب. لم يكن في الحقيقة بعيـداً. لو لم يتمسـك بالعرق لربما سقط في الهاوية. لأن الممرّ كان ضيّقاً فعلاً. ولذلك سُمّيت العين التي كانت هناك بعين المضيق. . . .

استعاد أنفاسـه، وفكر أن غضبـه ليس في محله. فليس هناك فرق كبير بين عقل الراعي وعقول أكباشه!

نفض ما علق بأثوابه من تراب، وعاد إلى مكانه. بينما جلس الراعي بالقرب منه على إحدى صخور الممرّ. سأله المهاجر:

ـ أنت من دشرة السبعة؟

أومأ الراعي برأسه مثبتاً.

كأن انتهاء الراعي إلى هذه الدشرة خفّف، بل أزال نهائياً غضب عابد. سوف يتحصل منه على بعض المعلومات، ربما لن يتوصل إليهما على طريق آخر. كان يظن أن الراعي ساذج لا يمكن لمخّه أن يشتغل. كلّ ما يمكنه أن يفعله هو الإجابة بنعم أو بلا، أو الإدلاء بما يعرف.

ـ أأنت جلّاب؟

ـ جلّاب ماذا؟

ـ أليس هكذا يقولون؟ أردت أن أعرف هل تتاجر بهذه الأكباش؟

ـ آ. . . . وكيف ظننت أنني جلّاب؟

ـ لأن القطيع كلّه ذكور!

ـ أنت الوحيد من أناس المدينة الذي لاحظ أن القطيع كلّه ذكور!

لم يكذبه. كلّ من تلاقى به ممن جاءوا إلى الدشرة، سواء كانوا زواراً أو من الطلبة المتطوعين، لم يلاحظوا ذلك، مع أنهم حادثوه. . .

ـ هل جاء ناس من المدينة إلى هذه الدشرة؟

ـ الناس يأتون إلى هنا دائماً.

خفق قلب عايد. ظن أنهم يأتون من أجل الجازية. فسأل:

ـ ولماذا يأتون؟ ماذا يفعلون في هذه الدشرة؟

ـ يأتون مثلك، للزيارة.

ـ أنا لم آت من أجل الزيارة.

ـ ولماذا جئت إذن؟ أنت لست من هنا. أعرف كلّ سكان هذه النواحي، سواء كانوا في المدينة أو مهاجرين!

أخرج عايد علبة السقاير وناول واحدة إلى الراعي. فخطفها منه خطفاً. ساد بينهما الصمت برهة من الوقت. ثم استأنف عايد أسئلته:

ـ هذا القطيع الذى ترعاه إذن للسبعة!

ـ للسبعة. من تكون أنت؟ هل لك صديق في الدشرة؟

ـ نعم، لي فيها صديق لأبي.

ـ من هو؟

ـ اسمه الأخضر بن الجبايلي. هل تعرفه؟

ـ الأخضر بن الجبايلي؟ ومن ذا لا يعرفه؟

ـ أهو هنا؟

ـ وأين تريد أن ذهب؟ منذ أن سُجن ابنه لم يفارق الدشرة.

حاول عايد أن يخفي علمه بالخبر فافتعل الدهشة:

ـ سُجن ابنه! ولماذا سُجن؟ هل له ابن كبير؟

ـ ألا تعلم ما حدث؟ كل الناس يعلمون... هات سيقارة أخرى...

ناوله السيقارة، واستفسر:

ـ كل الناس يعلمون. . . ماذا؟

حكى له الراعي القصة بطريقته:

ـ جاء من المدينة جماعة من الناس زعموا أنهم جاؤوا لمساعدة السكان. . .

ـ هل كانوا كاذبين؟

ـ جاؤوا مع الشامبيط. . . قال أرسلتهم الحكومة! فرقتهم الجماعة على البيوت، منهم شخص جاءت قرعته على بيت الأخضر بن الجبايلي. كان يتظاهر أنه درويش كالدراويش، وهو يخفي الشر. . .

ـ يخفي الشر؟

ـ كان يقضي أيامه هائماً بين الشعاب والجبال، كمن يبحث عن كنز. . .

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

ـ لا أدري. ربما ليوهم الناس أن الأرواح تخاطبه، فيؤمنون بدروشته. . .

ـ الأرواح تخاطبه! أرواح من؟

ـ الأرواح. . . ألا تعرف الأرواح؟ لكنه كان في الحقيقة يريد اختطاف الجازية!

كاد يقفز على ذكر الجازية! لكنه تغلب على مشاعره:

ـ يريد اختطاف الجازية! من الجازية هذه؟ ولماذا يختطفها؟

ـ الجازية خطيبة الطيّب بن الأخضر. . . لذلك قتله

الطيّب، وهو الآن في السجن.

ـ والجازية أين هي الآن؟

ـ أين هي . . . لدى مربّيتها.

ـ كل هذا وقع من أجل امرأة. . . . قتل رجل وسجن آخر!

نظر إليه الراعي باستخفاف كأنه يريد أن يقول إن من لا يعرف قيمة الجازية، لا يعرف شيئاً! وصرح قائلاً:

ـ الجازية أكثر من امرأة! لكن، قل لي، من أين أتيت أنت: إن من يجهل كلّ ما جرى في الدشرة لا يسكن الأرض!

ابتسم عايد. حاول أن يترك الراعي يتحدّث. لكن الراعي لم يرد أن يتحدث عن الجازية، ومقتل الطالب. تحدث عن أشياء أخرى تتعلّق بالدشرة. اشتمّ عايد في ذلك رائحة حذر. لا شك أن هناك ما يخفيه هذا الراعي! لذلك أعاد الحديث مرة أخرى إلى موضع الجازية بطريقة لا تدعو إلى ريبة أو احتياط:

ـ هل تعرف الجازية أنت؟

نظر إليه الراعي باستغراب، وأجابه:

ـ كل الناس يعرفونها!

ـ هل هي جميلة إلى درجة اقتتال الناس عليها؟

ـ الناس يقتتلون على صيانة شرفهم. . . لكن دعنا من الحديث عن هذا الموضع. أنت ذاهب إلى الدشرة لدى الأخضر بن الجبايلي. . . سوف يقول لك هو كل شيء.

ـ من أبو الجازية هذه؟

ـ شهيد. قتل بألف بندقية!

ـ بألف بندقية؟

ـ كان وحده جيشاً، قالوا...

ـ من أين هو؟

ـ لا أدري. البعض قال من الشرق، والبعض قال من الغرب... لكن نسبه الحقيقيّ لا يعرفه أحد.

ـ أين دُفن؟

ـ في حناجر الطيور، قالوا!

ـ حناجر الطيور؟ أنت تسخر...

ـ لا أسخر، هكذا قالوا...

ـ من هؤلاء الذين قالوا؟

ـ الدراويش، الفلاحون، الاولياء، الشامبيط... الجميع...

ـ والجازية، كم عمرها؟

ـ يتيمة، من يعرف عمرها؟

المعلومات التي توصل إليها عايد من خلال ما دار بينه وبين الراعي من حديث لم تحقّق لديه ما كان يصبو إلى معرفته عن الجازية. كان يودّ أن يعرف ما انتهى إليه أمر خطبتها، بعد مقتل الطالب. كان يودّ أن يعرف هل كانت تحبّ الطالب أم الطيّب ابن الأخضر، أو لم تكن تحبّ أحداً بالمرة، إنما أُرغمت إرغاماً على الخطبة، وعلى الرقص مع الطالب... كان يودّ أن يعرف قضية ابن الشامبيط الذي يقرأ في أمريكا... أشياء كثيرة

كانت تدور في نفسه، وكلها تتّصل بالجازية. لكن الراعي كان يتحاشى الحديث عنها. بل ندم أن ذكرها مع هذا الرجل الغريب!

سكت عايد، وراح ينظر إلى تلك السهول الممتدّة أسفله، حيث الخصب يمرىء الحياة لا يمرّرها. وتلك القرى المنتشرة هنا وهناك، منها القرية التي ترك بها سيارته. كما لاحظ في سفح ربوة من ربى السهل آليات وجرّارات وحركة دائبة. . . سأل الراعي عنها:

ـ وتلك الاشغال الجارية في سفح الربوة؟

ـ تلك القرية الجديدة التي لا يريد سكان الدشرة الانتقال إليها. الشامبيط وهب قطعة أرض لتبنى فيها.

ـ لماذا، هل هناك مشروع ترحيل سكان الدشرة؟

ـ ألم تسمع ذلك؟ السكان اتفقوا على أن لا يرتحلوا من الدشرة، وعلى هدم السدّ، إن لزم الأمر.

ـ أيّ سدّ؟

ـ السدّ الذي تبرعت إحدى الوكالات التي يعرفها ابن الشامبيط ببنائه.

ـ هناك وكالة يعرفها ابن الشامبيط تريد بناء سدّ؟ من تكون هذه الوكالة؟

ـ لا أدري. الشامبيط هو السبب في كل شيء. . .

ـ في كل شيء؟

ـ يريد تزويج ابنه الجازية.

ـ هل الجازية تقبله؟

ـ يرغمها. له أكتاف عراض!

ضحك المهاجر من تعبيره وتساءل:

ـ هل الزواج أيضاً يقتضي الأكتاف العراض؟

ـ بالجازية يقتضي أكثر من الأكتاف...

فكر المهاجر أن ينهي الحديث في هذه المرة مع الراعي في موضوع الجازية. لأنه في كل مرة يتعرّض إليها يشعر بشيء ينغّصه. كما لو أن حياته صارت كلها معلقة بالجازية. سأله أن يعزف له لحناً وقد رأى الناي في حزامه.

نسف الراعي في الناي، وبصق على أصابعه ومرّرها بثقب الناي. ثم أخذ يعزف في لحن قديم جاء من أقصى الزمان. تناقلته الأجيال واحداً بعد الآخر، كل جيل أفرغ فيه أتراحه وأفراحه حتى صار لحناً امتزج فيه الشوق إلى النعيم بالشكوى من العذاب...

أحسّ عايد في عزف الراعي حرقة متيّم... وقال في نفسه، «لعله هو أيضاً مغرم بالجازية! لكن من ذا لا يحبها؟ قالوا إنها أخذت من الناس عقولهم ومشاعرهم...

بعد أن انتهى الراعي من العزف دخّنا معاً سيقارتين أخريين وافترقا. ذاك التحق بأكباشه وعايد استأنف طريقه صاعداً إلى هذه الدشرة ـ الحلم!

* * *

عين جارية. أشجار من كل نوع. صفصاف يتحدّى الهاوية! الدشرة وجنّاتها تحيا في الربيع رغم الصيف الصائف! مناظر الجبل ملأت نفس المهاجر غبطة. الحياة هنا لم يفقدها بتولتها محرّك ولا آلة، ما تزال على حقيقتها الأولى. السكان يستغلونها استغلال إشفاق وحبّ. ويحيون معها فصولها المتعاقبة. تاريخ الدشرة هو ذكريات مرتبطة بسنيّ الخصب والجذب، وبسنيّ القرّ والحرّ. الحرب التي خاضتها من أجل التحرير، رغم عظمتها، لم تسطر في رؤوس السكان أكثر من ذكريات... مع أن القرية كافحت، صمدت، وقفت في وجه الظلم، بيتاً بيتاً، فرداً فرداً، لكن بدون حقد. الشامبيط نفسه عندما أمر بالاستقالة استقال. ولما جاء الاستقلال وأمر بالعودة عاد... إذا تحدّث السكان عن بطولاتهم تحدّثوا ببساطة وتواضع مذهلين! مع أنهم سموا ببطولاتهم إلى مستوى المثل السائر!

حتى شهداء الدشرة دفنوا في مقبرتها، مع آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم. رفض ذووهم أن يدفنوا على حدة، أليسوا أبناءهم؟

إذا سئلوا لماذا حاربوا أجابوا: من أجل «النيف»!

فكر عايد وهو ينظر إلى مختلف الجهات المحاذية للدشرة والعين، أن كل شيء هنا ما زال يحيا في طفولته الأولى... الصفصاف شامخ الرأس إلى السماء وهو على الهاوية! العين تجري رقراقة وهي تسيل على أرض صلد جلمد! الطريق بين الدشرة والعين ليست طويلة، لكن أشواك العليق والعوسج تكتنفها من الجانبين، في حين تستعمل استعمالاً أساسياً في حياة

السكان. معها يمرّون إذ يسقون. منها تتفرّع المسالك المؤدية إلى الحقول والبساتين والسهل.

إن طفولة الدشرة تكاد تذكّر كل ساكن بطفولته. الزمان فيها منعدم، أو هو الفصول المتعاقبة.

تذكّر عايد ما حدّثه به والده عن الطفولة القاسية التي عاشها. قال له، أحبّ شيئاً مجهولاً وهو صغير، فانتهى به حبّه إلى الغربة، باحثاً عن ذلك المجهول!

وقال عايد في نفسه عن أبيه: «راح يبحث عن شيء تركه هنا»!

النظرات الباحثة عن الأحلام في الآفاق البعيدة لا تحقق شيئاً. الأحلام الحقيقية تبنى في الوطن، لبنة، لبنة!

لعل السكان أدركوا ذلك بالفطرة، فانصرفوا عن كل المغريات. أو ربما لاحظوا أن كل من لم يمت في أرض الغربة عاد في نهاية المطاف إلى الدشرة ولو زائراً!

خواطر كثيرة تتضارب في نفس عايد، لكنها خواطر عابرة لا يمكن أن يرتكز عليها بناء...

وفجأة، أقبلت مجموعة من النساء على العين وهو جالس إلى جانبها ـ إنه وقت السقي. قام مضطرباً خجلاً. أخذ حقيبته متهيّئاً لمغادرة المكان، وإذا بعينيه تقعان على فتاة عِروب، حسنها فاض عليها كالنور وملأ المكان!

خفق قلبه خفقاناً شديداً: «انها الجازية! الحلم الذي جاء بي من آخر الدنيا!».

رجلاه تتقدمان في اتجاه الدشرة، وقلبه يتأخر في اتجاه العين! لم يستطع أن يلتفت ويملأ نظره من وجهها. «عيب»! هكذا حدثه أبوه عن تقاليد المداشر. الرجل لا يلتفت إلى المرأة...

لكنه أحس بسعادة ممتعة، تسري في ذاته رقراقة شعشاعة! ان أتعابه المرهقة في الصعود إلى الدشرة زالت في لحظة! هو يشعر الآن أنه قادر على أن يصعد إلى هنا عشر مرات متتاليات، مقابل نظرة واحدة لهذا الوجه البديع المشرق! اللذة ليست شيئاً دائماً، هي سعادة لحظة، قد لا تتجدد أبداً. ومع ذلك فان عايداً يشعر الآن أن حياته لم تذهب سدى. أن المستقبل مهما كان بالنسبة إليه، لن يستطيع نزع هذه الصورة المشرقة من نفسه!

أقبلت الفتاة صاحبة الوجه الصبيح في مقدمة النساء كباقة ورد قدمتها له الدشرة المعطاء.

تابع عايد طريقه الضيّق الملتوي حتى وصل جامع «السبعة»، حيث ملتقى السكان ومكان تجمّعهم بعد عودتهم من أعمالهم.

وجد هناك مجموعة من السكان، محلّقين حول «الفلجة» ـ لعبة قروية تشبه لعبة الضامة ـ وبالقرب منهم شخص أسند ظهره إلى الحائط كان بصدد خياطة برنس ـ حيّا الجميع، وصافحهم واحداً واحداً. ثم جلس بالقرب من الرجل الذي كان بصدد خياطة البرنس. كان لابساً نظارة بلا ذراعين، مثبتة

على أنفه. يمسك كبة من حرير، استلّ منها خيطا وأدخله في الإبرة. سأل عايداً دون أن يلتفت إليه:

ـ جئتنا من المهجر أظنّ؟

ـ نعم.

ـ مرحباً بك، وأهلاً وسهلاً. هل تعرف أحداً في هذه الدشرة؟

ـ نعم، الأخضر بن الجبايلي.

نزع الرجل النظارة عن أنفه في حالة اندهاش، وراح يتأمل المهاجر. لم يتعرف عليه. عصر ذاكرته لعلّها تكون احتفظت بصورة قديمة لهذا الشخص لكنه لم يجد فيها شيئاً. فسأله:

ـ من تكون أنت؟

ـ أنا عايد، وأبي يدعى السايح بو المحاين.

وضع البرنس جانباً في دهشة بالغة، وارتمى على عايد يقبّله:

ـ يا ألف أهلاً وسهلاً!

لم يدر عايد ماذا يفعل سوى مبادلته احتضانه. ثم سأله:

ـ من فضلك. هل تعرف أبي؟

ـ لا أعرفه فقط، إننا أكثر من أخوين! كيف حاله؟ انقطعت عني أخباره منذ كم من سنة!

لم يرد عايد إحزان صديق أبيه بإخباره بموته في الحال:

ـ إذن أنت هو الأخضر بن الجبايلي؟

ـ أنا هو يا ولدي!

انقطع اللاعبون عن لعبهم وراحوا يستمعون إلى ما يجري من حديث بين هذا الغريب وبين ابن الجبايلي. البعض منهم يعرف السايح بن بو المحاين، فظن أن من واجبه إعادة مصافحة عايد... استأنف ابن الجبايلي يقول:

ـ لم أكن أظن أبداً أنني أستقبل اليوم هذا النبأ السارّ! أنا وأبوك، كل منّا سلك طريقاً... وها هي الأقدار تعيد الأمور إلى ما ينبغي أن تعود إليه!

تدخّل أحد القرويين بسذاجة وغباء قائلاً في تساؤل:

ـ سمعنا أن ابن بو المحاين جُنّ؟

نظر إليه عايد دون أن يجيبه. لكن الأخضر لم يدع التهجم بدون ردّ قال:

ـ المجنون هو الذي يتنسّم أخبار المجانين!

كانت لهجته مليئة بالتهديد مما جعل الرجل القرويّ يعتذر في تلعثم:

ـ لم أقصد النيل من ضيفك يا عم الأخضر، والله!

وتقدّم إلى عايد يصافحه معتذراً مستعفياً.

جمع الأخضر بن الجبايلي برانسه وأدوات الخياطة وخاطب عايداً:

ـ هيّا بنا إلى البيت!

تكلّم أحد الحاضرين معترضاً استعجال ابن الجبايلي دعوة

المهاجر إلى البيت:

ـ دع الرجل يجلس معنا قليلاً، نسأله عن بعض المغتربين.

ـ لكم كل الوقت أن تسألوه لكن بعد أن يستريح!

انطلق الرجلان إلى بيت ابن الجبايلي الذي يقع في آخر الدشرة، على طريق العين. بينما بقي من كان بساحة الجامع من القرويين يضربون أسداسهم في أخماس، متكهّنين حادسين... كل يزعم أنه أدرك السبب الذي جاء بهذا المهاجر إلى الدشرة. البعض زعم أنه محام جاء ليطلب استئناف الحكم الصادر عن الطيّب ابن الأخضر، ويقوم بالدفاع عنه. لكن هذا الزعم لم يجد تأييداً من جلّ الحاضرين. لا يستأنف الحكم بعد كل هذه المدة. قال ذلك أحدهم. وقال آخر، أنا أعرف لماذا جاء... جاء ليتزوج بحجيلة بنت الأخضر، أو بالجازية!

اتفقوا في نهاية الأمر على أن الزواج بحجيلة أقرب إلى المعقول. فهو ابن صديق حميم، لا يمكن أن يخطب الجازية، انما جاء ليتزوج بحجيلة. لا شك أن أباها ـ في زعمهم ـ حدّث عنها في رسائله ابن بو المحاين، فقرّر هذا تزويج ابنه بها. واتفقوا على أن هذا الفتى المهاجر لايبدو عليه ما يزهّد فيه. بل حكموا أن حجيلة ولو أنها من الفتيات الفائقات الجمال بعد الجازية في الدشرة، إلا أنها لا يمكن أن تجد في هذه النواحي أحسن من هذا المهاجر!

ترك ابن الجبايلي عايداً في حجرة الضيباف التي لها باب

خارجي وآخر داخلي ودخل إلى الحجرة العائلية يخبر زوجته:

ـ قومي، يا ابنة الناس، لقد جاءنا ضيف من أعز الضيوف. أعدّي لنا عشاء طيّباً. لا تستعملي الكسكسي الجاهز، افتلي للعشاء كسكسياً جديداً من قمحنا. وأنت يا حجيلة، هيا قومي أعينيني لنذبح الخروف.

أجابته الفتاة مندهشة:

ـ لكن هذا خروف العيد!

وتساءلت زوجه متعجّبة:

ـ من هو هذا الضيف الذي تتحّدث عنه؟ خروف العيد للعيد، لا للضياف...

ـ الليلة عيده! إن هذا الضيف جاء إلينا من آخر الدنيا!

ـ من هو؟

ـ إنه ابن السايح. أتتذكرين السايح ابن بو المحاين الذي كان يطارده الاستعمار؟ الرجل الذي أقام الدنيا وأقعدها...

ـ ابن السايح هو الذي جاء! هل له ابن؟

وتساءلت الفتاه بدورها، وهي تستعيد في ذهنها صورة ذاك الشاب الوسيم الذي رأته في العين:

ـ ومن هو ابن السايح هذا؟

ـ لا تعرفين السايح. كنت صغيرة عندما غادر القرية

الزوجة تتذكّره جيّداً. تتذكّر السايح، ذلك الشاب الحييّ الذي لم يكن يرفع بصره أبداً عندما يتحدث معها. عرفته

وشمس الجبال لم تشرب بعد ماء شبابها. كان يحبها وكانت تحس بذلك. لكنها كانت بالنسبة إليه، أولاً وقبل كل شيء، زوجة صديقه الحميم. وكان بالنسبة إليها، قبل كل شيء، صديق زوجها الوفيّ. كان حبّهما متبادلاً بدون تصريح أو رجاء تحقّق. كان بمثابة رباط مقدس يجمع بين عواطف مكبوتة في الأعماق، أكثر من أيّ شيء آخر.

مرّت كل هذه الخواطر بذهنها في لحظة عابرة...

ولِمَ جاء ابنه؟ وهو، هل ما زال حيّاً؟

ـ لم أسأله. ليس الوقت وقت سؤال. بعد أن يستريح نتحدث.

ـ هل يتعشّى وحده أو تستدعي معه بعض الناس؟

ـ ماذا جرى لك يا المرأة؟ هل يعقل أن يغرب حتى عندنا؟

ـ أنا أعدّ لكما القهوة أولاً ثم أقوم للعشاء.

ـ افعلي. الخروف لن يشدّ يدي أكثر من وقت القهوة. سنشرب القهوة هنا في المراح. تركته في بيت الضياف حتى أنتهي من الذبح... أن أباه أكثر من أخ!

صحيح أن السايح أكثر من أخ لدى الأخضر ابن الجبايلي. عرف كلاهما الآخر في زمن الخوف. كان السايح يتحاشى مع كل الناس ذكر نسبه. إذا سئل عن ذلك، أجاب: «ما الفائدة أن تعرف من أي قرية أنا؟ كل القرى متشابهة. أنا لست من كل القرى التي يسودها الذلّ، ولم تحاول دفعه عنها!»

أما الأخضر بن الجبايلي فكان طوال حياته مثال الرجل الوديع الصبور في أعين الناس. وكان صياداً ممتازاً. يقول عنه القرويون، «إن الحجل يسقط قبل أن تنطلق الطلقة من بندقيته»!

لكنه في الحقيقة لم يكن وديعاً كما يتخيل الناس. لقد كان وراء كل الأحداث والأعمال الفردية التي عرفتها الناحية في سنوات القهر. قتل أربعة من رجال الجندرمة، وثلاثة حرّاس غابات، ومفتشاً سرياً غامر إلى القرية للتحقيق، وقاضي محكمة!

قام بكل هذه الأعمال في ظرف خمس عشرة سنة. لم يعرف أحد أنه كان وراء كل تلك الأعمال. وكان أولئك الذين انتهت آجالهم على يديه، من الذين عاثوا فساداً وشطّوا في الظلم. لم يكن يحزّ في نفسه إلا شيء واحد... لقد ذهب أبرياء إلى السجن في أعمال قام بها هو. حكم عليهم بالسجن المؤبّد رغم ضآلة الحجج القائمة ضدهم! وبسبب تلك الأحكام المجحفة قتل القاضي في نهاية الأمر!

قالت الزوجة وقد رأت زوجها قد انتهى من ذبح الخروف وتقطيعه:

- ادع ابن صديقك، لنحمد له سلامة المجيء، واشربا القهوة في بيت الضياف، لنتمكن نحن من إعداد العشاء.

- نشرب القهوة هنا ونخرج. لديكما الوقت الكافي لإعداد العشاء.

أدخل اللحم إلى البيت ونظف المكان من آثار الدم. ثم دخلت حجيلة إلى البيت، بينما بقيت أمها تنتظر دخول المهاجر الذي ذهب زوجها يدعوه. . .

ولما وقف بالباب لاحظت هادية ملامح أبيه تكسو وجهه. قبّلت رأسه وقبّلها على خدّها، وتبادلا التحايا والسؤال. ثم دعي إلى الجلوس على الدكّة المفروشة خصيصاً له.

تساءل ابن الجبايلي وهو لا يرى ابنته هناك:

ـ أين ذهبت حجيلة؟ حجيلة! أين أنت؟

قالت الأم إنها خجلت، لم تحجب نفسها. ونادتها بدورها فأقبلت مطأطئة رأسها. يهتزّ عايد انفعالاً لرؤيتها! حسنها يملأ المراح، يفيض عليها كما يفيض النور! هكذا تخيّل عايد المشهد. يتساءل في نفسه: «هل هي؟ الجازية لها اسم آخر؟ ولماذا هي هنا؟ هل هي مخطوبة فعلاً للطيّب؟ إنها الجازية، لا شك في ذلك! إنها الجازية، لها اسمان. . .».

تتقدّم إليه الفتاة، تقبّله على وجهه. يقبلها على خدها! إنه سعيد بهذا اللقاء. إن لم تكن هي الجازية نفسها، فإنها جازية أخرى تغزو القلوب الأشد تعنّتاً.

تجلس الفتاة إلى جانب أمها على عتبة الباب، قبالة عايد. ينظر إليها مرة أخرى، يراها تنظر إليه. لم تحول بصرها عنه! كأنها تتحداه، أو تناديه! يتحدث في نفسه: «إنها الجازية، أو كالجازية! إنها جريئة! إنها. . . يا إلهي، كم هي جميلة»!

لم يكن من الممكن أن يحاول فهم شيء من نظراتها. ذلك يستلزم التمعّن في وجهها...

من جهتها، كانت تنظر إليه، وأفكارها تسبح في مجالات مضبّبة، تنعدم فيها الرؤية الواضحة. بالجملة، منظره الخارجيّ راقها. سحنته المدنيّة أضفت عليه بريقاً ندياً لا تعرفه بشرات القرويين!

هو لم يزل عنه تردّده... في هذا الموقف لا يمكن أن يفهم هذا الواقع: إنها تدعى حجيلة. وهذان أبواها، وهو الضيف ابن الصديق! واقع زهيد لا يسد هذه الحاجة الملحّة في صدر عايد لمعرفة الحقيقة!

لم يكن من السهل تبادل الحديث في موقف كهذا بالنسبة إليه. ان الرجال بكل تأكيد لا يستطيعون تثبيت نظراتهم على حسن كهذا... بمثل هذه الخواطر كان يطمئن نفسه. لا بد من وقت لفهم الحقيقة. سوف يحاول فهمها بأسلوب ذكيّ. لن يخبر أحداً بحقيقته. أبوه قال له ذات يوم، حياة القرى غامضة، لا تُفهم، مثلها مثل البحر... وقال له: «لا تحدّث القروي بحقيقتك، ذلك يزهّده فيك»!

جال ببصره في أرجاء المراح فلم يجد فيه ما يشدّ نظره. رفع بصره إلى أعلى فبانت له قمة الجبل وجزء من الصفصاف. رآه ابن الجبايلي صامتاً ينظر إلى القمّة والصفصاف، قال له:

ـ من هنا لا يعرف المرء أن الدشرة مشرفة على هاوية.

ردّ عايد بطريقة آلية:

- الهاوية الحقيقيّة هي أفكار الناس!

أعادت حجيلة في نفسها الكلمة... الجملة نفسها أعادتها الأم بتنهد وصوت مسموع!

أكّد ابن الجبايلي قول عايد بأسلوبه الجبليّ:

- صحيح، الهاوية الحقيقية هي أفكار الناس، لأنها ليست لها عروق في الأرض!

استعذب عايد تعبير الرجل، لكنه لم يفهم بالضبط ماذا يعني، فتساءل:

- الأفكار ليست لها عروق... تعبير جميل، ولكن لا أفهم كيف يكون للأفكار عروق؟

- لكل شيء، يا بنيّ، عروق تربطه بالأرض، حيث لا عروق، لا شيء سوى الهاوية!

لم يدر عايد كيف وردت على ذهنه بحدّة صورة أكباش الراعي مندفعة في المضيق، وكادت تلقي به في الهاوية لو لم يكن هناك عرق بارز تمسّك به!... وفي الحين فسّر ذلك الورود للصورة، بكلمتي العروق والهاوية... وأعاد يقول:

- صحيح، حيث لا عروق، الهاوية!

قالت هادية لزوجها كالمؤنّبة:

- أنت لا تتحدّث إلا على العروق... هكذا كنت تقول

للطيّب. . . دعنا من هذا الآن!

حجيلة أيضاً لم يعجبها مجرى الحديث. . . كانت تودّ أن يسأل أبوها عايداً عن حاله، عن أسباب مجيئه مثلاً، لتعرف شيئاً عنه. . .

ردّ ابن الجبايلي مبرّئاً نفسه:

ـ لست أنا الذي خلقت العروق، الله هو الذي خلقها!

لم يعجب حجيلة كلام أبيها تماماً. قالت كأنها تتحدّاه:

ـ الطيّب قال، الشمس لا عروق لها ومع أنها تضيء على جميع الناس!

أعجبت عايد الكلمة والجرأة معاً! إنها فتاة جمعت إلى الحسن الذكاء! واغتنم تردّد ذكر الطيّب، فسأل عنه:

ـ كيف حاله؟

استفسر ابن الجبايلي:

ـ تسأل عن الطيّب؟

ـ نعم.

ـ هل تعلم أن لي ابناً؟ لا أذكر أنني أخبرت أباك بذلك. . .

ردّت الزوجة تصحّح خطأه:

ـ الطيّب ولد والسايح هنا. . . ألا تتذكّر؟

ـ صحيح، صحيح. . . نسيت تماماً!

ذكر عايد أن أباه لم يخبره بذلك. الذي أخبره هو الراعي.

ـ الراعي الذي أخبرك؟ أيّ راع؟

ـ راع يرعى أكباشاً التقيت به في الطريق، في مكان به عين...

ـ عين المضيق... راعي السبعة. إنه هذّاء كذّاب! ماذا قال لك؟

لم يكشف عايد عن شيء مما يعرف، ولا أخبر بما قال له الراعي:

ـ استرحت هناك فالتحق بي، فدخنّا سقاير معاً، وسألت عنك فأخبرني أنك موجود بالدشرة، وأن لك ابنا قرأ في المدينة هو الآن في السجن. سألته: لماذا فلم يجبني سوى بكلمات مبهمة لا تفيد شيئاً. تركته وشأنه....

ـ إنه في السجن. السجن للرجال!

على إثر ذلك دعا ابن الجبايلي عايداً للخروج إلى البساتين، إمضاء للوقت، وتعرفاً على جهة من جهات الدشرة.

الزمن الأول:

- 3 -

الشاعر لم يعد. قال السجّان: سيقيم أسبوعاً بالمستشفى تحت الرقابة. حالته الصحّية سيئة.

ترى لماذا سُجن؟ لا شكّ أنه سكر مع الصغار وشتم الكبار... الشعراء يشتمون إذ يسكرون. هم يتدخّلون فيما لا يعنيهم، والكبار لا يرحمون!

الليل طويل. الظلام يملأ الحجرة. لا أرى شيئاً. لا الصور «البورنوغرافية»، لا الألفات ـ العصيّ التي لم تصل بصاحبها إلى الباب...

في سويداء الظلام أرى القرية من جديد. أرى الشامبيط يتقدّم مجموعة من الطلبة المتطوّعين...

قال السكّان، جاءوا لقضاء عطلتهم في جبلنا!
قال الشامبيط، أرسلتهم الحكومة!
قال الطلبة، جئنا لمساعدة السكّان!
لكل طرف فكرة وراء رأسه!

الشـامبيط همه أن يقنـع السكّـان بقبـول الانتقـال إلى القـريـة الجديدة عندما يتمّ بناؤها، لتتمكن الشركة من بناء السدّ. أشيع أن له أسهماً في تلك الشركة، أو شيئاً يشبـه ذلك... كـما يريـد أن يتمكّن ابنـه الذي قـرأ في أمريكـا من مخـالـطة السكـان. في الدشرة لا يستطيع ذلك. الصعود إلى الجبل مرّتين متتاليتين فقط يكرهه في كل شيء، ويدفعه إلى العودة إلى أمريكا، كما زعموا.

في الـواقع، المسـافة التي تفصـل بـين نهايـة الـطريق المعبّـدة والدشرة، رغم قصرها، أبعـد من أيّ مسافـة بين نقـطة وأخرى في الدنيا! إنها تشبه أن تكون مسافة بين زمانين، لا بين مكانين! فهي بمثـابة صعـود مزدوج، إلى الجبـل، وإلى الماضي! وكـلاهمـا يرفضه ابن الشامبيط الذي قرأ في آخر الـدنيا، في أمـريكا! كـما يقول عنه الناس، وكما يقول عنه أبوه...

الشامبيط إذن، يسعى بكل الـوسائـل لإغراء السكّـان بقبول الانتقال إلى القرية الجديدة التي وهب قطعة أرض لتبنى فيها!

الشركة أيضاً تودّ أن ينتقل السكان في أسرع وقت ممكن، ولو تبنى لهم، مؤقتـاً، بيوت من قـزدير! ليتسنى لهـا الشروع في بنـاء السدّ. لأنه لا يمكن الشروع في أيّ بناء والدشرة قـائمة في رأس الجبل، إذا بُني السد قبل الرحيـل يستحيل الـوصول اليهـا... الشركة لا تريد أن تظهر بمظهر المستبدّ مع سكّان ضحوا بكل ما لديهم ليحيوا أحراراً. اختارت هي أيضاً طريق الاقناع والإغراء والـدعايـة... قالت، إذا بُني السـدّ فلن تضيع بعـد ذلك ميـاه الجبال. سيعمّ الخصب، وتحيا عيـون السهل، وتصبـح الأراضي

كلها سقوية! لكن السكّان ردّوا بأن الماء لا يمكن أن يتجّمع في سدّ هناك. المياه كلها تغيض تحت الصخور في قرارات قصوى. فهو لن ينفع أحداً، بل يضرّ... ولتكون الصورة أكثر بشاعة، أضاف السكان، أن هذا السدّ إن بُني سوف يكون هاوية ضخمة، قرارها الجفاف! إنه، في نظرهم، سدّ لا لتجميع الماء، ولكن لسدّ الطريق الوحيد المؤدي للدشرة، حيث الجامع الذائع، جامع «السبعة».

تقع الدشرة في القسم الصخريّ، من الجبل. الجامع بني في الجهة الشمالية من موقعها. يشرف على منحدر يبلغ عدة كيلو مترات. له صحن بسبع أقواس، هي كل ما يُرى من السفح، حيث تستوي الأرض وتنبسط سهولها.

يقال عن الجامع إنه مدفون به سبعة أولياء، لهم من يخلفهم أبد الدهر! كلما مات سبعة جاء من بعدهم سبعة! يعبّر السكان عن ذلك بعبارة متداولة بينهم: «سبعة يغباو، سبعة ينباو»!

امتزجت الأساطير بالأحداث... الماضي الطويل أحدث ثقوباً في ذاكرة الدشرة، فأصبحت كل الأحداث الماضية أساطير! وهكذا صار دراويش القرية ذوي كرامات. لا يحدث حادث بالدشرة دون أن يشارك فيه الدراويش!

وقع بين السكان، غبيّهم وعاقلهم، شبه اتّفاق على إسناد الكرامة والخوارق للجامع والأولياء والدراويش، لم يكن ذلك

يضرّ في شيء حيواتهم الخاصة. بل أكسبهم لدى سكان المداشر الأخرى مهابة، وجعلهم أهل غيب! ومن ذا الذي يخشى الغيب؟

ومنذ شيوع أمر الجازية، هزّت القرية أحداث كثيرة، مما جعل «الزردات» تتوالى والتنبؤات تتعاقب. أصبح الغيب شفافاً لا تخفى خفاء جيّداً وراءه الأحداث المقبلة!

ثم جاء الطلبة...

مهمّتهم، فيما أشاع الشامبيط، إقناع السكّان بالاستعداد للرحيل إلى القرية الجديدة، قبل أن يُبنى السدّ، وتنقطع الطريق...

لكن الطلبة لم يكن يهمّهم انتقال السكان من قرية إلى أخرى، بقدر ما كان يهمهم انتقالهم من الماضي إلى المستقبل... هذا ما قالوه، في عدة مناسبات، وخاصة الأحمر صاحب الحلم الأحمر!

في نظر الطلبة انتقال السكان إلى قرية سهليّة يسهّل اتصالهم بغيرهم، ويضاعف من حاجاتهم إلى أشياء الحياة الحديثة. وهو بالضبط ما لم يتسع له فضاء الدشرة...

ومع ذلك نظر السكان إلى الطلبة، بالرغم من ازدرائهم الفطريّ للمدينة، بعطف. فكروا أنهم شبان في بداية الطريق، يستحقّون الرعاية والمساعدة. إن أياديهم البضّة ووجوههم الطرية لتتأذّى من سنبلة قمح، أو شعاع من أشعة الشمس

الجبليّة المحرقة!

قـرّرت الدشرة أن تقيم لهؤلاء الضيـوف ضيـافـة. وضيـافـة مدنيين في قرية جبلية مشهورة بالأولياء ما عساهـا أن تكون إن لم تكن زردة؟

الزردة تقتضي الإعداد لها، وريثما يتمّ ذلك، بدأ الاتصال بين السكان والطلبة...

قـال لهم الشـامبيط، «الحكـومـة بعثت لكم هؤلاء الـطلبـة يقضون بينكم شهراً. تشاوروا فيما بينكم على إقامتهم. لا أريـد أن أسمع أن أحداً أساء إليهم. هم أحرار، يفعلون ما يريدون. الحكومة قالت ذلك»!

ردّ عليه أحد السكان وهو ينظر إلى طالبة (صافيـة) في سروال «جين» أزرق يضبط وركيها كانت تدخن: «هم أحـرار بدون أن تقول الحكومة ذلك»!

كلا الشامبيط والقرويين متفقون على الأقل في شيء: «الحريـة تمنحها الحكومة»!

الكتب التي قرأتها مخطئة إذ تقول: «الحكومات تأخذ حريـات الناس، حتى حكومات النمل والنحل»! تأخـذ الحريـات مقابـل الأمن أحياناً...

لكن كـل ذلـك هـذيـان: أقـوال الكتـب والقـرويـين والشامبيط... الحرية هي رفض. الجازية حرّة... رفضت كل الخاطبين!

أبي حرّ، يرفض كل ما ليس جبلياً. قال لي ذات يوم: «ارفض الأشياء التي تراها تقبل عليك وحدها»!

لكن أبي وحده يشكّل قضيّة...

عندما وصل الطلبة لم يكن حاضراً بساحة الجامع. كان عليَّ أن أشارك في «الاجتماع الطارىء» الذي عقدته الجماعة، للنظر في إقامة الطلبة بالقرية. كانوا سبعة! ستة فتيان وفتاة. أقول فتيان تجوّزاً... الأحمر كان في سن الثلاثين تقريباً.

بعد الأخذ والردّ، لاحظت أن الجميع تقريباً متهيبّون من الفتاة الطالبة، منذ أن رأوها تدخّن وتضحك وتلبس سروالاً أزرق، أبرز كل ما تخفيه القرويّات!... لم يبد أحد استعداده لأن تشاركه حياته العائلية طوال شهر. إنها «خطر»! خطر على المرأة والرجل معاً!

لمّح أحد الحاضرين بأني «المثقف» الوحيد بينهم الذي يمكنه أن يتفهّم مقتضيات الوضعيّة...

عرضت عليهم أن تقيم الطالبة في دارنا، فسرّهم ذلك. اقترح طالب نفسه هو الأحمر، أن يذهب معي أيضاً. رحّبت بذلك. لم يكن هناك ما يمكن أن أختشيه من وجودهما بيننا. عائلتنا قليلة الأفراد، تتركب من أبي وأمي وأختي وأنا. وكلّ منا عالم وحده! باستثناء أمي. أختي حجيلة... إنها لا تخشى أحداً، حتى بندقية أبي! مع أن بندقية أبي ليست شيئاً هيّناً!

وهكذا تم «توزيع» الطلبة على بعض العائلات.

ذهبت والطالبين إلى البيت. قرّرت في نفسي أن أتقاسم حجرتي مع الطالب، وتتقاسم أختي حجرتها مع الطالبة.

وجدنا أبي جالساً على الدكّة الحجرية الخارجية، يخيط برنساً. لم يندهش لرؤية الطالبين. سبق له أن شاهد في السنوات الماضية بعضاً من أصدقائي الذين جاؤوا لقضاء أيام بيننا. ومع ذلك، ظننت أنه لم ينتبه إلى أن ثاني الطالبين فتاة. قلت له تطوّعت مجموعة من الطلبة لقضاء شهر بالدشرة.

رحّب بالطالبين. وقام ففتح الباب المؤدّي للمراح. الباب الذي لا يلجه إلا القريب. أبي اعتبر الطالبين قريبين لي. هو يصنف الناس حسب مهنهم. نادى أمّي بإحدى التسميات التي يسميها بها: «يا مولاة الدار»... أحياناً يناديها: «يا ابنة الناس»...

خرجت أمي ووراءها أختي. لست أدري كيف لاحظت تعلّق عيني أختي بالطالب؟ كانت تنظر إليه نظراً غريباً! كأنها نسيت وجودنا...

صافية تبادلت مع أمي وأختي القبل، على عادة النساء. بينما صافح الأحمر أختي وقبّل رأس أمّي! لم يكن له أن يفعل ذلك. لكنه فعل! استحسنّا في أنفسنا جميعاً فعله أنه وضع نفسه منذ اللحظة الأولى بيننا حيث يجب أن يكون...

تناولنا القهوة في المراح. أثناء ذلك قرّر أبي كيف تكون إقامة الطالبين بيننا، دون أن يسأله أحد ذلك. يتصّور نفسه مسؤولاً عن كل ذلك... قال يخاطبني:

«أنت، يقتسم معك. . .

- اسمي الأحمر.

. . . يقتسم معك الأحمر حجرتك. وأنت، تتقاسم معك. . .

- اسمي صافية.

. . . تتقاسم معك صافية حجرتك.

وخاطب أمي: «أعدّي لنا العشاء. كل الطلبة يتعشّون هنا».

استحسن الطالبان اقتراحه.

نصحنا بالخروج للتجوّل في ناحية البساتين. كان قصده من ذلك أن يتفرّغ لذبح بعض الخرفان وتتفرّغ أمي وحجيلة لإعداد العشاء.

خرجنا نتجوّل كما اقترح أبي. قال الأحمر ونحن نقترب من الصفصاف: «هذه الدشرة يمثّلها ثلاثة عِقام: الجامع والجبل والصفصاف»!

ردّت عليه صافية وهي تتأمّل علوّ الصفصاف المفرط: «على العكس، أنا أعجبتني هذه الدشرة، وأعجبنيَ فيها بالخصوص هذه الثلاثة! إنها تمثّل العلوّ الذي يرنو إليه كل حالم»!

أجابها ساخراً: «ماذا يمثّل غير العقم؟ إن العلوّ لا تحتاجه الحياة الأرضيّة»! لم تستسلم. قوة إيمانها برأيها زاده جمالاً صوتها العذب الحريريّ: «الحياة المتناهية في الأرضية هي التي في حاجة

إلى علوّ. وإلا ماذا يبقى من معنى للحياة»؟

اقترحت عليهما أن نشرب من العين. ففاجأني الأحمر بسؤال لم أكن أنتظره كلية:

- هل صحيح أن بهذه الدشرة فتاة أو امرأة تدعى الجازية رفضت كلّ من تقدموا لخطبتها؟

- من قال لك هذا؟

- أخبارها ذاعت في كل جهة. قالوا، لم ترفض فقط خطّابها، بل لم يستطع أيّ واحد منهم رؤية وجهها!

تدخّلت صافية تتساءل بسخرية:

- وإذن، كيف رغبوا في خطبتها وهم لم يروها؟

أجابها الأحمر بلهجة محايدة:

- قيل إنها أقسمت أن تحجب وجهها عن كلّ من تقدّم لخطبتها، وأنها لن تتزوج إلا بمن لم تخطر له على بال!

كلام الأحمر عن الجازية لم يرق صافية. تساءلت باستخفاف:

- ومن تكون هذه التي تتصرّف هذا التصرّف الملكيّ؟

أجابها الأحمر بسخرية مازحة:

- جدّتها الأولى الكاهنة، وجدّها القريب صاحب الحمار!

ضحكنا جميعاً من تلك التورية الجميلة.

لم يبد لي ملائماً أن أتحدّث عن الجازية، ونحن نعيش

اللحظات الأولى منن تعارفنا. لكن هذه الكلمات الأولى من الأحمر جعلتني أشكّ أنه لم يتطوّع إلا من أجل ما أشيع عن الجازية! هل يريد أن يكون واحداً من أولئك الحالمين؟ إن أطواره تبدو غريبة. عيناه لا تستقران على مكان. أفكاره تتنقل من فكرة إلى أخرى، كأنه يبحث عن شيء جديد لم يسبقه إليه أحد! حدسه ينفذ إلى المجهول بسرعة مذهلة، في لحظة نفذ إلى أعماق حقيقة القرية: العقم! دهورطويلة عاشتها في صراع عقيم مع الطبيعة. لم يخرجها صمودها من الضباب. بل زاده كثافة قيمها، عوائدها، طريقة حياتها، لم تتغير. احتفظت بزمن قديم لتحيا فيه إلى الأبد!

نحن في الطريق الضيّق الملتوي المحفوف بالأشواك نتقدم نحو البساتين وإذا بقطيع من الغنم، قطيع السبعة، يقبل علينا، يدفع بعضه بعضاً. لولا فرجة على حافة الطريق التجأنا إليها تلقائياً لداستنا تلك الأكباش! كانت مندفعة كالسيل والراعي يصيح فيها لتزيد من سرعتها!

عندما رآنا ننحرف عن الطريق مضطرّين ضحك ساخراً وهو يقول: «أكباش أخافتكم»! لم يجبه أحد منا بكلمة. لكن الأحمر قال معلقاً على ذلك: «إنه تعمّد إهانتنا». وأضاف: «إنه يعتقد أن الأولياء يحمونه ما دام راعياً عندهم».

تعجّبت من ذكائه الغريب! وسألته:

ـ من قال لك إنها أكباش الأولياء؟

ـ هـل رأيت قطيعـاً كله ذكور في غـير الأسواق؟ إنها أكبـاش الزيارات!

جذبت صافيـة سيقارة من العلبـة وناولتني واحـدة فرفضت، فأخذها الأحمر! أشعلت سيقارتها ومصّت منها أنفاساً متتالية، ثم أطلقتها في سحابة معرجة إلى السماء. تسـاءلت وعيناهـا تتابعـان عروج الدخان:

ـ ترى، كم ينبغي لنا من وقت لاقتـلاع الخرافـات من أذهان الناس؟!

لم أتكلم. فضّلت الاحتفاظ بأفكاري، رغم أن تساؤلهـا كان يستلزم جواباً.

أجابها الأحمر بسؤال غريب:

ـ وماذا تضعين في رؤوسهـم بدل الخرافات؟

ـ ماذا أضع؟ أضع الحقيقة...

ـ أيّ حقيقة؟

ـ الحقيقة العلمية التي تربط الأشياء بأسبابها وغاياتها!

ـ هذا الكلام نفسه خرافة! الحقيقة العلمية التي... الخرافـة أيضاً لها أسبابها وغاياتها!

ـ وأنت ماذا تضع مكان الخرافات؟

ـ أنا؟ لست أدري... ربما أحوّلها إلى أحـلام حمراء بمستقبـل يلمسه أشدّ الخيالات ضيقا.

قلت له مازحاً:

ـ إذن لهذا سميت الأحمر! لأن أحلامك حمراء. . .

ـ الأحمر هو اسمي الحقيقيّ. هو لوني، هو أحلامي.

ضحكنا من تأكيداته على الحمرة. ثم علقت الفتاة على الألوان تقول:

ـ أنا اسمي صافية. اسم لا يحتاج إلى تأويل. يمكن أن يلحق كل اسم وكل صفة.

قال لها الأحمر هازئاً:

ـ لو تدركين معنى الحمرة تدركين حقيقتك!

ـ حقيقتي واضحة. كل شيء فيها مدرك، لا يحتاج إلى شرح. أنا امرأة!

نظر إليها الأحمر بتركيز فلم تستطع مقاومة نظره طويلاً. حوّلت رأسها عنه إلى جهة الجبل وسألتني:

ـ هل صعدت إلى قمة الجبل؟

ـ مرة واحدة.

ـ ماذا يُرى من هناك؟

أجابها الأحمر مكاني:

ـ الهاوية!

لم تلتفت إليه. بقيت تنتظر جوابي. قلت لها:

ـ لا شيء. إنما عندما يقف المرء على القمة يشعر بالغبطة.

ـ وتقول لا شيء! ماذا في الحياة غير الغبطة؟

صعّد الأحمر نظره من قدميها إلى رأسها ثم قال لها بسخرية قاسية لم يكن في حاجة إليها:

ـ تفسّرين الأشياء كلها جنسياً!

أجابته بتحدّ:

ـ كأنك جئت إلى الدنيا بالفاتحة!

لم يرقني مجرى الحديث. قلت لهما لنعد إلى البيت. رفض الأحمر. وسألني:

ـ ماذا يشدّ السكان إلى هذا الجبل؟

ـ الجبل نفسه!

قلت له ذلك تملصاً من إحراجاته، لم تكن تثقل الكلمات في فمه. كان يقول كل شيء يخطر على باله. لست أدري إن كان ذلك نوعاً من الاعتداد بالنفس، أو ماذا؟

قلت له ذلك، ورجوته أن يدع الأمور المتعلّقة بالدشرة تتكشف له وحدها:

ـ دع نفسك على عفويّتها، واحي معنا حياتنا تَرَ الأشياء على صورتها الأصلية، لا تعقيد فيها ولا بهرج.

نظر إليَّ كمن يريد أن يقول، أنت نفسك لا تصدّق ما تقوله. . .

قمنا عائدين إلى الدشرة. سألتني الفتاة:

ـ ما علاقة الشامبيط بالدشرة؟ يبدو أنه يعلم كل خفاياها!

ـ ككل الشنابط «المحترمين»! شامبيطنا له ميزة لا توجد في غيره: هو مخضرم. عمل في عهدين... له تاريخ وحده!

علّق الأحمر على كلامي:

ـ عمل في عهدين وسيعمل بقوّتين، قوّة الشمبطة، وقوّة أخرى سوف يستمدّها من أمريكا، حيث يقرأ ابنه.

يقيناً، هذا الطالب على علم بكل الخفايا!

أخذ الظلام يسود الجهات المتصلة بالأفق. كلّ منا لاذ بالصمت. وإذا بمنادي الدشرة يرتفع صوته عالياً:

«يا أهل الدشرة الأخيار، والسبعة الكبار! يا اللي الناس تزوركم من كل الاقطار، نهار الخميس، اللي جاء بغرارة يروح بتليس! زردة ووعدة، على خاطر شبان أضياف. هم الرأس واحنا الاكتاف»!

علّق الأحمر على ذلك:

ـ يريد السكان إقامة زردة من أجلنا، شيء جميل!

لست أدري لماذا استحسن الأحمر كل ذلك الاستحسان مبادرة الدشرة بإقامة زردة؟ إنه يخالف ما أعرفه عن الطلبة. هم يعتقدون أن ذلك النوع من الاحتفالات يضاعف من شيوع الخرافات، وتأسيسها في أفكار السذّج من الناس...

أحسست حينها أن ذلك الصيف لن يكون كالأصياف

السابقة. أحسست أن شيئاً يتهيّأ حدوثه أمام بصري. شيئاً لم أستطع عندئذ تحديده، كوّن في نفسي عواطف امتزج فيها الخوف بالحيرة!

لا شكّ أن ذهاب أبي للساحة الجامع لدعوة الطلبة الآخرين للعشاء، مكّن من الاتفاق على إقامة الزردة. السكان لا يبرمون أمراً وراءه.

عندما تقام الزردة بدون مناسبة تقليديّة تدعو إلى إقامتها، تشكل ظاهرة اجتماعية ممتازة، رغم ما يشوبها من خرافات وأساطير. فيها تزول الحواجز، ويرتفع الحجاب. وغالباً ما تكون مناسبة للتعارف بين فتيان القرية وفتياتها المحجّبات. إن أغلب السكّان يعتقدون أن الدعوات الصالحات لدى أضرحة الأولياء السبعة تولّد العواقم وتزوّج العوانس... وأن من جاء إلى السبعة بنيّة سيئة لن ينجو من نقمة أوليائها. وكثيراً ما تحقّق ظنّهم. لكن بأسباب خارجة عن الأولياء.

الزردة التي قرّر السكان إقامتها تكريماً للطلبة لم تكن خالية من الخلفيات. إنها بمثابة محكّ... إذ سوف يتعرّفون على القرية مجرّدة من ثيابها. سوف يرون نساء وفتيات ربما لن يتمكنوا من رؤيتهن في الظروف العادية.

أثناء العشاء حكى لنا طالب قصة وقعت له مع أحد السكان. سأل الطالب عن الزردة ما هي، فأجابه القرويّ: «الزردة؟ لا تعرف الزردة؟ أكباش تذبح، ومناجل تضبح،

وزرنة وبنادير تصدح! فيها صفقات تعقد، وأموال تعدّ، ماء من العين، ودعوة من الصالحين لابناء المدينة المتطّوعين»!

صافية لم تتعشَّ معنا. قال لها أبي: أنت يا بنيّتي مكانك مع النساء. ما دمت بيننا دعينا نرتّب أمورك حسب ما يرضيك ويرضينا. سترافقك حجيلة في تنقلاتك في الدشرة. تتصلين بالقرويّات، تساعدينهنّ، ترشدينهنّ. تتعرفين على حياتهنّ عن كثب. المرأة لا تستحي من المرأة. تستطيعين أن تصلي إلى ما تشائين معهن. أما إذا بقيت مع الطلبة فستكونين أمثولة. كل القرويّات يحتمين منك، ولا يكشفن لك عن حقيقتهن»...

استصوب الطلبة رأيه، باستثناء الأحمر الذي قال، «لم نأت إلى هنا لنتعلم حياة القرويين، جئنا لنقوم بمهمّة ومهمتنا نحن الذين نحدّدها»!

أما كون كلامه منطقياً فليس أحد يشكّ في ذلك، لكن مجابهة أبي، القرويّ، بذلك الأسلوب بدا لي مشتطّا.

لم يتكلم أحد ليضيف شيئاً أو يعلّق، التفت الجميع إلى صافية يستفسرونها رأيها بالنظرات. قالت صافية:

ـ كلام عمي الأخضر معقول. المهمّ هو النتيجة لا الطريقة!

لم يستسلم الأحمر. رغم أن الجميع بدا عليهم الارتياح لموقف صافية. قال:

ـ ربما لم أعبّر عن رأيي بطريقة ذكيّة! ما أريد أن أقوله هو أن مهمة صافية قد تكون أعسر من مهمّاتنا نحن. لذلك بدا لي أن

مجرّد رضوخها لرأي لم تشارك في صنعه يسلبها حرّيتها. إن من يعمل على تحرير الآخرين يجب أن يكون أولاً حراً. ينبغي أن نكون صرحاء فيما بيننا. لا نوارب ولا ننافق. أنا شخصياً لم آت لاستجداء الرضاء من أحد...

قاطعه أحد الطلبة:

ـ لكننا لم نأت لإسخاط الناس!

ضحك الأحمر ساخراً من سذاجة رفيقه، وقال:

ـ أتعتقد أن هذا السروال الذي تلبسه صافية، وتدخينها أمام القرويين لم يسخطهم بعد؟

أبي لم يعجبه الحديث، قال مبتسماً، وابتسامه عادة يعبر عن سخطه:

ـ سكان هذه الدشرة متعوّدون على كل شيء، لا يرضيهم ولا يسخطهم إلا ما فعلته أيديهم. أنتم الآن ضيوف. استريحوا الليلة، وغداً اعملوا ما ترون لائقاً بكم. إذا أرادت رفيقتكم أن تكون معكم فهي أعرف بما يصلح لها...

كلام أبي وضع حدّاً لأيّ تعاون مقبل بينه وبين الطلبة، وخاصّة الأحمر. هو معذور في الواقع. تعوّد دائماً أن يكون أباً. من يستطيع نزع الأبوة من عقله؟ أنا يقدّر رأيي لسبب بسيط، لأني لا أخالفه. المرة الوحيدة التي خالفته فيها كانت تتعلق بخطبة الجازية... كنت حينئذ أدرس بالمدينة. رجعت في العطلة إلى الدشرة فعرض عليّ الموضوع. رفضت رفضاً قاطعاً.

واصل حديثه كأنه لم يسمعني! قال:

- بنت أصل. أبوها شهيد عظيم. أمها امرأة صالحة، لكن الله كتب عليها الموت أثناء الوضع. والولادة استشهاد أيضاً! مربّيتها الحالية، عائشة بنت سيدي منصور، مناضلة كبيرة ومجاهدة كجداتها الصالحات. يعرف نضالها وجهادها العدوّ والصديق.

أيّدته أمي في حديثه، وأضافت:

- عجوز صالحة، أعطاها ربي قوة القلب والذاكرة.

واصل أبي حديثه:

. . . الجازية ليست فتاة، هي حياة! من دخلت داره فاض خيره وعلا نجمه. أنت الآن على وشك إتمام قراءتك، لا بدّ أن تبني مستقبلك على أساس صحيح. الناس في الدشرة كلهم ينتظرون هذا الزواج. إن الخطّاب كثيرون. والشامبيط يجري ليل نهار يريد خطبتها لابنه الذي يقرأ في أمريكا. الناس لا يحبونه ولكنهم يخشونه. له أنصاره حتى خارج الوطن. حتى الآن، الجازية رفضته والعجوز عائشة رفضته. . . لكنه خبيث ذو أحابيل. . . ولعل مساعيه لتُبنى قرية جديدة في أرضه ويُبنى سدّ في سفح الجبل، يدخل في برنامجه المتعلق بالجازية. لو نجح لضاع كل شيء. وأصبح جهاد المجاهدين عبثاً من العبث!

حاولت أن أفهمه أني لا أفكر في الزواج في تلك الظروف كما تذرّعت بأن الجازية ترفضني كما رفضت الآخرين. . .

ردّ عليّ رداً وضع فيه كل ثقته :

ـ الجازية لا تستطيع معارضة قرية كاملة. كل السكان اتفقوا على ذلك، ما عدا بعض الرعاة... لكن هؤلاء لا تقبلهم الجازية ولا مربّيتها إلا مرغمتين!

أبي على علم بكل شيء! لم أكن أدري أن هناك رعاة يرغبون في الزواج من الجازية. استحييت أن أسأله من هم. كما فهمت من حديثه لأول مرة، أنه هو أيضاً له برنامجه...

قلت له لما رأيته مصمّماً : دعني أفكر في الموضوع. أجاب :

ـ الزواج من الجازية شيء لا بدّ منه. لك أن تفكر إذا شئت. الوقت ما زال متّسعاً للتفكير. لكن لا يمكنك أن تتهرّب من مسؤوليتك. هذا الزواج مسؤولية، نحونا ونحو الدشرة.

لماذا زواجي مسؤولية نحو الدشرة؟ كلام غريب! لعل أبي استعمل ذلك الأسلوب ليقنعني؟ في ذلك الحين لم أفهم كل جوانب القضية... والحقيقة التي يمكن استشرافها من ذلك، الآن، هي أن القرية علقت آمالها على أبي في إنقاذها من الشامبيط، ومن الرحيل، ومن بناء السدّ... وأبي إلى ذلك الحين لم يستطع أن يعمل شيئاً. هو أيضاً علّق آماله عليّ. ولربما كان في نظره الزواج بالجازية هو الخطوة الأولى!... ثم إن الجازية فتاة ليس لجمالها مثيل!

أنا لم أرها منذ زمن طويل. دراستي أبعدتني عن القرية، وقلّلت من مناسبات اللقاء. ولعلّ ما جعلني لا أعارض أبي

معارضة حاسمة الإشاعات المنتشرة حول رغبة الشامبيط في تزويج ابنه منها. لاشكّ أن ذلك حفزني أكثر مما ثبّطني، من حيث لا أشعر!

* * *

باتفاق مع حجيلة حاولت أن أتعرف على الجازية مباشرة. لم يكن هيّناً أن نتلاقى خفية في دشرة مثل دشرتنا. خاصّة وأن العجوز عائشة امرأة لا تتغيّب عن دارها، ولا تقبل أن تتغيّب الجازية عنها. قلت لحجيلة أسعى لدى العجوز عائشة لتسمح لنا باللقاء في بيتها. غايتنا شريفة ومشروعة ليس فيها ما يضير.

قبلت العجوز بعد التواءات وتحرّجات!

كم هي جميلة، الجازية!

هي الجمال تجلّى في أبدع مكنوناته!

حقّرت نفسي أمامها. امتلكني حزن غريب، وأنا أرى نفسي تصغر كلما رفعت بصري إليها. إن جمالها مخيف! إذا ابتسمت يهتزّ الوجدان إليها. إذا تكلمت تنفتح النفس كلّية لاحتضان كل ذبذبات صوتها!

لم أستطع أن أفاتحها في الموضوع. أصبت بما يشبه الذهول! حجيلة هي التي تكلمت.

تنهّدت الجازية وقالت: «أقبل زوجاً ابن عمي الأخضر الجبايلي. لكن أخشى عليه من دسائس الآخرين. كلهم

يريدونني لغاية، لا تتلاقى مع الحب الذي أبحث عنه لدى الزوج. هم تجّار وسماسرة، أكثر منهم خطّاباً»!

لم أرفع بصري إليها وهي تتحدّث. امتلكني خجل يشبه الخوف. قلت لها في نفسي: «إن تزوجت بك أعطك كل ما يمكن أن يضمّ قلبي من حبّ»!

واصلت تقول: «لكن مأساتي أنني لن أتزوج زواجاً حلالاً في وقت منظور... جاءت إلى البيت، وأنا صغيرة، امرأة غريبة الأطوار، تقرأ اليد. أنبأتني أنني آكل عشبة، تنبت في جبلنا، لا يعرفها أحد، تبقيني صغيرة حتى اليوم الذي أتزوّج فيه زواجاً حلالاً. وأن أزواجي الأوّلين لن يكونوا شرعيّين، سيكونون أزواجاً حراماً. وأن كل واحد منهم يلاقي حتفه عندما يظن أن الحياة استوت له... ثم يمرّ زمان لا شمس فيه، يشبه الليل وليس ليلاً، أعيش أزماته واحدة، واحدة. ثم أتزوّج بعدما يموت كل أبنائي المولودين من زيجاتي الحرام. أتزّوج زواجاً يشهده كلّ دراويش الدنيا»!

كنت، وهي تتحدّث، أتخيّل صوتها آتياً من وراء الكون، غريباً رهيباً محيّراً! آتياً من كل جهة، كأنه صوت من مصادر متعددة!

نظرت إلى وجهها فإذا هو قد اتخذ شكلاً لا يصدقه العقل: صار جليداً بلّورياً ترى من خلاله كلّ الجزئيات والدقائق الداخلية!

امتلكتني الدهشة إلى درجة أن لاحظت أختي ذلك. سألتني: «مالك؟ إن وجهك امتقع حتى لا يكاد يعرف! ماذا حدث؟ أتشكو شيئاً»؟

تعجّبت من أسئلتها، كأنها لم تَرَ ما حصل للجازية! لاحظت تغيّر وجهي أنا!

شعرت بالحاجة إلى مغادرة المكان في الحال. أعتقد أنني لو أقمت دقيقة أخرى لكنت فقدت توازني العقلي. قلت لحجيلة: «هيّا بنا، نؤجّل هذا الأمر إلى فرصة أخرى. إنيّ أحسّ بالصداع.» مددت يدي للجازية أصافحها فإذا وجهها يعود إلى إشراقه الأول، ووداعته السماوية!

فكرت حينئذ أنني كنت أجتاز طوراً غريباً، إذ خُيّل لي أنني أشاهد أشياء ما فوق - بشرية!

خرجنا دون أن نمرّ بالحجرة التي تقيم فيها العجوز عائشة لتوديعها. كنت أحسّ باستعجال غريب يدفعني إلى الخروج ومغادرة المكان!

استفسرتني حجيلة في الطريق عن سلوكي ذاك فلم أجد ما أجيبها به. ثم ماذا أقول لها؟ إنها لم تر بنفسها ما رأيت. لم تسمع ما سمعت...

في الممرّ الضيّق المؤدّي لبيتنا الذي تحفّ به الأشواك التقينا براعي السبعة. وبمجرّد أن رآنا قهقه قهقهة عالية، دون أن ينبس بكلمة. وانطلق جارياً مع الطريق المنحدر الذي يربط

الدشرة بالساحل. كان بلا أغنام. بقيت في سمعي ضحكاته عالية متجاوبة ذات أصداء، لا توصف!

قلت لحجيلة، «لماذا يضحك هكذا»؟ ردّت عليّ بدهشة وخوف: «من الذي يضحك»؟ - «راعي السبعة! ألم تريه»؟

نظرت إليّ محملقة حائرة. . . .

وما أن دخلنا الدار حتى داهمتني حمّى من النوع الممتاز، حمّى «الباليوديزم».

* * *

نشطت الحياة في الدشرة منذ وصول المتطوّعين. كثر بين النساء التواصل والتزاور لنقل آخر القصص التي نسجها خيال الدشرة عن المتطوّعين. أخذ الرجال يتجمّعون حيثما اتفق للتعليق على هؤلاء المدنيين الذين أرسلتهم المدينة كالعطر يدغدغ الأنوف بينما البطون جائعة. شاعت الأوصاف والنكت. فتيات القرية وصفن الشبان بأوصاف قرويّة عذبة الصور. قالت واحدة تصف الأحمر: «شعره كالذرة»! قالت الأخرى: «عيناه فريكيتان»! قالت ثالثة: «بوجهه نمش كالقمر»! قالت رابعة: «طويل كالصفصاف». . .

كنّ بالجملة مسرورات بهؤلاء المدنيين. في حين كانت تعاليق الرجال ساخرة ماكرة. قال أحدهم: «عندنا امرأتان لكل رجل، ولدى هؤلاء ستة رجال لامرأة»!

أما إمام القرية فحكى حكاية طريفة عن صافية، في حوار

ساخر خفيف. قال سألت الطالبة صاحبة السروال والسيقارة: «هل لك أب؟» - «نعم». - «ماذا يعمل؟» - «معلّم». - «ما شاء الله! هل لك أمّ؟» - «نعم». - «ماذا تعمل؟» - «حلاّقة».

قال: «اندهشت عندما قالت لي إن أمّها تعمل حلاّقة» كررت السؤال: «قلت حلاّقة؟» - «نعم، حلاّقة». - «للرجال؟».

قال: «ابتسمت وقالت: «لا، للنساء». - «النساء يحلقن رؤوسهنّ في المدينة؟» - «نعم». - «أمّك تلبس السروال مثلك؟» - «أحياناً». - «تدخّن مثلك؟» - «لا. أمي لا تدخّن».

قال ثم سألتها: «أبوك يعلم بمجيئك إلى هذه الدشرة الجبليّة مع ستة شبان»؟

قال: نظرت إليّ شزراً من القدمين إلى الرأس، وقالت: «طبعاً، يعلم بذلك». وأضاف إلى القصة تزويقاً يقول فيه: «أبوها معلّم. أمّها حلاّقة. هي متطوّعة مع ستة شبّان! أفهمتم»؟

لقد راقته القصّة إلى حدّ بعيد. حكاها المرات العديدة لجماعات عديدة، من كل الأعمار. في كل مرة يضيف من عنده ما ينمّقها لدى السامع، حتى صارت مجنّحة الصور! مما أضافه: «أن النساء في المدينة يحلقن عاناتهن لدى حلاّقة وأن المعلّمين يرسلن بناتهن إلى البادية للإخصاب. وإن بعض النساء في المدينة يتزوّجن بستة رجال»... ومن ثمة انتهى إلى القيام بعملية حسابية يعجز عنها أشد الناس خيالا... قال لسامعيه:

إذا كان قوام المرأة في المدينة ستة رجال، فامرأتان قوامهما اثنا عشر رجلاً! وبهذا الحساب رجل واحد من الدشرة يساوي أربعة وعشرين رجلاً من المدينة! لأن رجل الدشرة يستطيع التزوج بأربع نساء» . . .

إنه صار يشعر بحنان نحو هذه الفتاة المدنيّة التي جاءت إلى الدشرة، لكثرة ما تحدث عنها وروى قصّتها . . . وودّ في أعماقه، لو سمحت له ظروف الدشرة وتقاليدها، لأخذ الفتاة الطالبة إلى مكان ظليل يعرفه، تغطّيه أشجار البلوط، ويهبها كل ما يجري في عروقه من ماء الحياة والإخصاب . . . لكن المحزن أنه لا يستطيع!

معوّقات جمّة تعترضه.

الأحاديث في الدشرة حول المرأة، من غير ذوات الرحم، تحوم في الغالب حول «همزة الوصل» الواصلة بين الجنسين . . . فرويد تجربته العاطفية الأولى كانت مع أمه! الكبت السامي سما بالجنس إلى ملكوت القداسة!

الإمام القرويّ لو استطاع لتبرّع بنفسه للفتاة! أصيب بالأرق لكثرة ما كان يفكر فيها. لعبت بفكره وخياله. حكى لبعض أحبائه، أن صورتها المبرزة لدوال الأنوثة فيها، لم تتخلّ عنه حتى في الأحلام! ملأت عليه حياته العقلية والنفسية، إلى درجة أن حلم بها ذات ليلة . . . رأى فيما يرى النائم، أن القرية أقامت زردة ضخمة، دعت إليها جميع السكان، ذكوراً وإناثاً. وتأخّر

هو في البيت لأسباب لم يتذكّرها في يقظته. هو في بيته وإذا بالفتاة الطالبة تملأ الباب بأردافها البارزة من سروال «الجين»! تتقدّم إليه، تحتضنه وتبكي، تبكي... يرقّ لها. يشعر أنه صار كله حناناً في ذلك الحلم. يقودها للفراش... لكنه في اللحظة المشرفة على اللذة القصوى، يلمع سيف في القاعة، على شكل برق! يفهم في حلمه ذاك أن السيف هو أحد الأولياء. وقبل أن يتمكّن من الابتعاد عن الفتاة يقطع السيف عضوه التناسليّ داخل الفتاة! يفيق من حلمه مذعوراً صارخاً: «قطعه! قطعه»! تستيقظ زوجته النائمة إلى جانبه خائفة مضطربة: «ماذا حدث يا رجل؟ ماذا قطع؟ من قطعوه؟». يعود الإمام إلى اليقظة نهائياً. يستردّ أنفاسه وهدوءه. يستغفر الله. يلعن ابليس، يلعن الطالبة المتطوّعة التي تعرض بلا حياء أنوثتها في الطرقات. تعيد زوجته السؤال... لا يصدّقها في الجواب. يزعم أن شخصاً أجنبياً جاء إلى الدشرة وأخذ يقطع الصفصاف... تلعن الزوجة بدورها «قاطع الصفصاف»... يقوم الإمام يتوضأ. يصلّي ركعتين «تكفيراً» عن أحلامه المذنبة!

لم يقنع هذا التطوّع أحداً من سكان الدشرة. رأوا فيه سراباً من سرابات سكّان المدن الكثيرة عن الأرياف! بل تمثّلوه «كقمر المقنع»، لا يلبث أن يختفي. ولو رُؤي من مسافة شهر! كما كان يقول المؤمنون القدامى... إنه سحر لا يقف أمام كرامة «السبعة» وصرامة الجبل!

إنهم يتمثّلون هؤلاء الطلبة واشتراكيّتهم «كالخرمية» القديمة

أيام المعتصم. . . إذ ما معنى أن تمشي فتاة مع ستة رجال باسم التطوّع؟

* * *

جيء بالثور الأبقع. لم يكن مهتمّاً بما ينتظره. يمشي على مهل، هادئاً، شامخ الأنف والقرنين! ينظر أحياناً إلى الصبية المصطفّين على جانبي الطريق، ضاحكين مستبشرين. ينظر إلى القرويين الجشعين المتفائلين. لقد ازدردته الأعين وهو يمشي على أرجله. في الواقع ذلك المصير كان عظيماً بالنسبة إليه، في نظر السكان. إنه ثور من ثيران الجنة! ملايين الثيران في العالم، لا يسمح لها حتى بالسير على قدميها إلى الموت. تنزل عليها صواعق، فتتحوّل في لحظة إلى علب، يتغذى منها المرتزقة والثوّار على حدّ سواء. . .

جُلّل الثور الأبقع بجلّ مزوّق منمّق مرونق على شكل وبألوان راية السبعة! حنئت قوائمه فصار فعلاً ثور جنّة!

سيق إلى مكان الذبح، بعد ما طُوّف به في ساحة الجامع.

كانت حينئذ سحابة داكنة فوق سماء الدشرة، تكاد تغطّيها، تنذر بعاصفة. لكن الناس لم يأبهوا بها. كانوا ينظرون إلى ما يجري أمامهم، إلى الثور الذي يتقدم نحو حتفه.

والغريب أنه ما أن اقترب منه «قاتله» حتى خار خواراً مريعاً، تعجّب له الناس.

حاول أحد الطلبة أن يتقدّم إلى المكان، ليحول دون ذبح

الثور، لكنه صُدّ على عقبيه! إن ذبحه هنا، في هذا المقام أشرف له من البقاء! إنه ثور سعيد يذبح في السبعة! هكذا أفهم الطالب. . .

ذبح الثور وسال الدم في صحفة من الفخار حتى بلغ منها النصف، ثم ترك الباقي يسيل في مكانه الموعود.

أُلقي في الصحفة ملح وفحم، ووضعت على حدة، كي يتجلط الدم وتمكن قراءته!

دوت البنادير وعلا صوت الزرنة وصيحات الدراويش، في ألحان تمهيدية. . . ثم جيء بصحفة الدم إلى أحد الدراويش «ليقرأها». . . يقرأ المستقبل المسطر في دم الثور المجمّد! وضع الصحفة في كفّه ودار بها في الساحة كما يدور المهرّجون بالأسواق. يقف لحظة، يتأمل الصحفة ثم يستأنف ‹ورانه›، فعل ذلك سبع مرات في ساحة الجامع، على عدد الأولياء والأيام. وصاح:

«ريح الشمال قتلت أولادنا بلا قتال! يا ويل الويل والسروال الطويل، وغزالة هايمة في الليل! جراد وحصاد، وسبع شداد! ماء الجبل ما يسيل إلى أعلى، وبنات الدشرة بالأودها أولى! يا ساكن قرية الصفصاف لا تخاف! سبعة يغباو سبعة ينباو! اضرب آ الزرناجي اضرب! جيبها من روس الجبال العالية، واللي عنده صفصاف يغرس قدامه دالية»!

أجلست النساء في جهة والرجال في الجهة المقابلة. أجلس

الطلبة المتطوّعون ومعهم صافية في صدر الساحة مع الشامبيط وأعيان القرية والدراويش والإمام.

في البداية كانت الحفلة عادية، رقص وألحان فلكلورية، وصيحات من الدراويش، حيناً بعد آخر. شارك في الرقص مع الدراويش بعض القرويين والطلبة... لكن عندما شرع في تحمية المناجل أخذ الجوّ يتكهرب، ووجوه الدراويش تكفهر.

تحمى المناجل حتى تصير بيضاء. لمسة واحدة تجعل الجلد يلتصق بها! لكن الدراويش يعرفون كيف يلمسونها ويلعقونها بألسنتهم ويمرّرونها على أذرعتهم العارية!

عاد الطلبة من الرقص إلى أماكنهم، ما عدا الأحمر الذى استمّر في الرقص مع الدراويش! تهامس القرويون فيما بينهم مندهشين من بقاء هذا الشاب في الرحبة مع الدراويش! هم يعرفون أن الدراويش مَكَرةَ، سوف يلعبون له لعبة النار! لن يستطيع التملّص من لعق المناجل. سوف يترك لسانه على ألسنتها المتوهّجة!

بينما النساء ازددن حماساً وهنّ يرينه يرقص بلا وجل ولا خجل! تساءلت إحداهنّ بإعجاب، «من يكون هذا الشابّ الأشقر الذي يشبه الصفصاف طولاً؟ هل هو درويش؟» النساء الآخريات شعرن بالإشفاق عليه من دراويش مكرة. الشامبيط لم يأبه لذلك. بل راح يصفّق. المقام يستحقّ التصفيق! حجيلة ابتهجت ببقائه في حلقة الرقص!

أثناء ذلك علت ضوضاء وهرج بين النساء! اتجهت كل الأنظار اليهن مستفسرة متسائلة!

لم يكن السبب هيّناً صغيراً. إنه حدث عظيم لم ينتظره أحد... لقد جاءت الجازية إلى «الحضرة»! الجازية التي تشبه الحلم، والتي لم يتمكن أحد من القرويين أن يقترب منها، جاءت إلى الحضرة!

جاءت ملثّمة، لكن نورها لم يحجبه لثام! حسنها تيّار متموّج، يهزّ القلوب! فاض جمالها على الساحة كما يفيض الفجر على الأفق! الناس مندهشون. التفتوا جميعاً إلى المكان الذي جلست فيه!

علت صيحات الدراويش، رهيبة، تطلب المناجل. اللحظة جدّ عظيمة، وجدّ خطيرة! الجازية أتت للحضرة. الأمر جدّ عظيم!

الطبيعة أيضاً رأت أن تشارك باعطاء الجو بعداً درامياً رهيباً! انطلق رعد مع صيحات الدراويش رددت صداه الجبال! الليلة ينتقم الأولياء من الطلبة، أو تنتقم الجازية من الرعاة والدراويش، أو يحدث أمر له ما بعده، أو تحلّ الساعة!

في غمرة الرعد والرقص أخذ أحد الدراويش يبكي بكاء عالياً ويقول: «يا ويلي، يا ويلي! السباع تخاف من الكلاب، والاعدا صاروا أحباب! يا ويلي، يا ويلي! الأبطال هربوا، والانذال غلبوا! يا ويلي، يا ويلي! الساعة جات، وفرات!

الساعة جات، واللي ما عاش في الحياة ما يعيش في المهات»!

الجو تجاوز الواقع إلى اللاواقع. كل شيء تضافر على جعله كذلك، الرعود، البروق، الزرنة والبنادير، الدراويش والمناجل، الليل، رقص الطالب، حضور الجازية المفاجىء، صيحات الدراويش وبكاؤهم!...

لحظات توتّر أحسّ الناس فيها أن الساعة فعلاً توشك أن تحلّ. مما جعل أحد الدراويش يسأل الآخر والرقص متواصل، بصوت مسرحيّ عالٍ: «قل لي، والساعة كيفاش» - «أشراطها جاءت...» - «وين هي؟» «الشمس» - «واش بها؟» - هربت من الشرق خائفة!» - «من آش خايفة؟» - «خايفة من اللي اجتمعوا وفرقونا!» - «ايه ايه، حق! قل لي، وأشراطها الآخرين؟» - «السبعة يغبنوها الزايرين» «حق. وأشراطها الآخرين؟» - «الدابة تخرج من تحت السدوم. يرجو الناس في الشيء اللي ما يبلغوهش ويتعبو في الشيء اللي ما ينالوهش، ويعملو في الشيء اللي ما ياكلوهش!» - «كيفاش عاملة هذا الدابة؟»- «رأسها رأس ثور، وعينيها عينين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن ايل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر سبع، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذيلها ذيل كبش، وقوايمها قوايم بعير. بين كل مفصل ومفصل اثناش ذراع»! - «يا ويل الويل! زيد، واشراطها الآخرين؟» - «الدجال الأعور، اللي مكتوب بين عينيه كافر! وراه سبعين ألف من اليهود! كل واحد منهم في يدو سيف ذهب، وعلى راسو تاج من

تيجان العرب!» ـ «يا ويل الويل! واشراطها الآخرين؟» ـ «يا جوج وماجوج...» ـ «واشراطها الآخرين؟» ـ «أولاد قريش ما يبقى فيهم ريش!» ـ «ومن يرد علينا كل هذا الهموم؟» ـ «الله، الحي القيّوم! اضرب آ الزرناجي، اضرب!»...

تحاور الدراويش الرمزي بهر الطلبة! نطق أحدهم قائلاً، إنهم كلهم شعراء! ردّ عليه الإمام: «إن كل هذا موجود في التفسير والسنة»...

أما الأحمر فكان يرقص مع الدراويش وهو في حالة «سكر» كامل بذلك الجوّ الغريب!

طلب درويش منجلاً أبيض من وهج النار وقدّمه إلى الأحمر. أخذه منه الأحمر دون تردّد. تشبّثت عيون الحاضرين به، منتظرين ماذا يفعل بالمنجل!

حكت الجازية لأختي تقول: «غمرتني بهجة لا توصف! أحسست الساحة والدراويش والشامبيط والصفصاف وأخاك والجبل والسبعة والطالب الراقص بمنجله مثل الدراويش الآخرين، أحسست بهم كلهم يدورون في رأسي ويرتفعون عالياً عالياً، إلى ملكوت من النشوة القدسية»...

والجازية إذا حكت تحسن التحليق في السدم البعيدة وكذلك أختي!

لعق الأحمر المنجل الأحمر! صاح الناس والدراويش: «الله أكبر!» ثم لعقه، ثم لعقه...

اشتـــدّ العــزف واشتــدّ الــرقص، وتــواردت المنـاجـل الحمراء على الـدراويش. وجيء بمنجل آخـر للأحمـر. قدمـه له أحد الدراويش بحنان. أخذه منه الأحمر بلهفة!

ازداد وطيس الحضرة التهاباً وتكهرباً. برق البرق حتى أضـاء كل شيء، وأضاء الجازية بشكل غريب! لو لم تكن متلثّمة بلثام صفيق لبان وجهها بكل دقائقه ومحاسنه! لكن لم يأبه أحد بـالبرق في تلك اللحـظات. كانت العيـون مصـوّبـة نحـو الأحمـر! لكن الأحمر كان رأى تجمع ضوء البرق على الجـازية، فـاتجه نحـوها، يشق صفوف النساء ومدّ يده إليها. . . .

أبي أخـذ بندقيتـه فمسكه الشـامبيط. ونصحه أعيـان الدشرة الذين كانوا هناك أن يتريّث. أعاد البندقية إلى مكانها.

قـامت الجـازيـة! وتهـامست الأصـوات: «قـامت الجـازيـة لم تمانع»!

جرّها الأحمر إلى الرحبة وسط الدراويش. لم يتمكن من رؤيـة وجههـا. همّ بنزع اللثـام عن وجههـا، لكنهـا منعتـه! قـدّم لهـا منجلاً فلعقته! راقصها فراقصته! يا لها! عقول القـرويين كـادت تـطير من رؤوسهم! راعي السبعة رمى بعصـاه ودخـل يـرقص. أخذ منجلين أحمرين وراح يلعقهما بالتناوب، ويرقص ويـرقص! الأحمر يرقص، الجازية ترقص، الدراويش يرقصون. الحاضرون جالسون لكن نفوسهم ترقص! البرق في السماء يرقص!

يشتـدّ العـزف. يشتـد قصف الـرعـد. تشتـد صيحـات

الدراويش. المناجل تضوء والبرق يضوء!

عيون القرويين مشدوهة متشبثة بالجازية والأحمر! الدهشة بلغت أقصاها. الرقص يشتد ويشتد! الدراويش يحلّقون حول الجازية والأحمر ويصفقون تصفيقاً محموماً عالياً! الجازية والأحمر يزدادان حماساً. رقصهما يتّخذ حركات غريبة لم تر القرية مثلها قط! وينهمر المطر!... عيون شرارة تنفتح في السماء فجأة! يتخلل دفقات المطر بَرَد ضخم، البردة بمقدار بيضة الحجلة! صعق الناس! لاذوا بالجامع يحتمون من المطر والبَرَد. بينما هرع الآخرون نحو بيوتهم القريبة! اختلط الحابل بالنابل كما يقولون... علت الصراخات والنداءات. البرق يواصل برقه والرعد يواصل رعده. البَرَد يتواصل سقوطه بشكل رهيب! الأرض ابيضّت بالبَرَد! نسي الناس أنفسهم وراحوا يفكرون في الكارثة التي حلّت بهم! الفلائح والغلال قضت عليها العاصفة! غداً عندما يطلع النهار تصبح الأشجار عارية، تصبح الأرض عارية، يصبح السكان عراة... كل شيء سيجرّه السيل إلى الهاوية، حتى الآمال! لا شك أن الأولياء غضبوا على الدشرة التي قبلت هذه الإهانة من غريب! ما معنى أن يرقص بتحدّ ويلعق المناجل بتحدّ، ثم يراقص الجازية بتحدّ وقح لا مثيل له! كل ذلك في عقر حرم السبعة!....

هذه هي التعاليق التي أخذت تنطلق من الأفواه، والمطر لم يتوقّف...

بحثت خلال ذلك عن الأحمر لنعود إلى البيت معاً فلم أعثر

لـه على أثـر! كنت أتمنّى في نفسي أن لا يعـود إلى البيت في تلك الليلة. حالة أبي لم تبد لي مرضية، كان من غير شك يتصور أن رقصـه مع الجـازية يشكـل اعتـداء عـلى شرفنـا. هـو يعتقـد أن الجازية صارت خطيبتي بمجّرد أن فكر فيها! في الواقع القرويـون كلهم كانوا يرون رأيه. . .

عدت إلى البيت وحدي. كنت أفكـر في الطريقـة التي أفاتـح بها أبي في الموضوع. . . كيف أفهمه أن ما وقع ليس من الخطورة بالدرجة التي يتصوّرها، حتى ولو كـانت الجازيـة خطيبتي فعـلاً. إن ما وقع لا يعدو أن يكون رقصاً. . .

في البيت وجدت صافية وأمي وحجيلة. تعاليقهن كانت كلّها تـدين سلوك الأحمر. . . أمي قـالت، أن ما حـلّ بالقـريـة كـان بسببه، أهان الأولياء والدراويش والسكّان الذين أكـرموه وآووه! حجيلة كـانت مندهشـة من مقدرتـه على الـرقص ولعق المنجل. ومتذمّرة من رقصه مع الجازية. . . صافية علقت على مبالغتـه في مراقصة الجـازية. قـالت، إن ذلك استفـزاز للقرويـين الذين لا يفهمون سلوكاً مثل ذلك.

أمـا أنا فـما كان يـدهشني هو مجيء الجـازيـة إلى الحضرة! ثم كيف قبلت أن ترقص مع شابّ غريب عن محيطها، وهي الفتـاة الاسطورة في الإباء!

* * *

تتكثّف سحب الماضي في نفسي، وأختنق أختنق!

أنظر حواليّ فلا أرى شيئاً. أبحث بأظافري عن صور أقتلعها من غيابات الذاكرة لأتسلى بها في هذا السجن الرهيب، فلا تخرج الصورة. أرى أمامي، لا شيء، سوى ألفات رفيقي الذي لم تصل به إلى الباب!

أنتبه من غفوتي على صوت السجّان يقول:

- غداً يعود الشاعر. سيريحك من التفكير! إنه يتحدث كثيراً...

ألتفت إلى الباب فأراه في وقاره كالصنم ينظر إليّ بعينين خلتا من حنان الإنسانية ولم يبق فيهما سوى آلة لمراقبة السجناء...

أمتدّ على سريري القذر، وأغمض عينيّ...

الزمن الثاني:

- 4 -

عايد مستلقٍ على قفاه بالقرب من الصفصاف، ينظر إلى السماء. سحابةٌ على شكل باخرة ضخمة تبدو جامدة في مكانها. جذب أنفاساً من السيقارة التي كانت بيده، ورماها. ثم قام بسرعة ينظر أين وقعت عقب السيقارة. خشي أن تحدث حريقاً. لقد رماها بصفة آلية. رأى دخانها يرتفع من مكان مخضرّ بالحشيش قرب الساقية. فهدأ روعه، وعاد إلى استلقائه. إنه يشعر بحزن عميق منذ أن أعلمه الأخضر بن الجبايلي بقضية الجازية... طبعاً أعلمه بتفاصيل وجزئيات حسبما كان يعتقد هو، لا حسب الحقيقة. قال له إن الجازية «خطيبة» ابنه منذ الطفولة، وإن السكان كلهم متفقون على أن يتزوّجها هو، وأن مربّيتها قبلت. وأنها هي نفسها، أي الجازية لم تمانع... وأنه إذا لم يتمّ الزواج من قبل فلأن الطيّب لم يكن قد أنهى دراسته... لكن عندما جاء الطلبة المتطوّعون اضطربت الأمور. قال له: جاء أحدهم، يعني الأحمر، بأفكار «حمراء» لم تسمع بها الدشرة أبداً! وأنه لو لم يكن مقيماً ببيته لقتله في أيامه

الأولى بيده! ويؤكد على كلمة «يده» مشيراً إليها: «لقتلته بيدي هاته»! قال له: «نحن حرثنا وتعذّبنا أيام القرّ وهو جاء ليحصد الغلّة! جاء ليتزوج بالجازية! لا يخاف أحداً ولا يخشى أحداً لأنه جاء من طرف الحكومة. . . يا للعجب»!

حكى له أيضاً كيف راقص الجازية «بالرغم» منها! قال له، «سحبها إلى حلقة الرقص سحباً، فاضطرت لمجاراته. ثم من بعد أرغمها على لعق المنجل والرقص معه إلى درجة الجنون! حتى أنّ السماء نفسها غضبت فأرسلت بَرَدا على الدشرة لم تعرفه في تاريخها الطويل! تركها خراباً يباباً. . . لقد وجد في إحدى حباته الدم». . .

وأمام سلوك كهذا لم يبق لابنه الطيب إلا استخلاص العبرة. . . وهو الآن بالسجن.

حكاية الأب لعايد تزعم كما رأينا أن القاتل هو الطيّب!

بينما حكت حجيلة ذات يوم للمهاجر أن أخاها لم يقتل أحداً، وأنه لم يكن يرغب في الزواج من الجازية، وأنه لما تقابل معها أفهمته أنه لم يخلق لها ولم تخلق له. . . وأن سقوط الطالب قرب عين المضيق قد يكون مجرد عثرة. لأنه كان منذ مجيئه إلى القرية لا ينفك يتردّد على الجهات المشرفة على الهاوية، ويتسلق مختلف الصخور والربى الحجرية. . . لأن ذلك حسب ما زعم يدخل في نطاق المهمّة التي جاء من أجلها. . . أراد أن يعرف عن الدشرة وضواحيها في أيام قلائل ما لم يعرفه أهلها فيها طوال حياتهم. . .

حيّر عايداً مقتل الطالب! إن سقوطه في الهاوية من مكان قرب عين المضيق أعاد إلى ذاكرته صورة قطيع الأكباش الذي فاجأه يوم أن كان قادماً إلى الدشرة... لكن ما حكاه له صديق أبيه أقنعه. ثم إن المحكمة نفسها حكمت بالسجن على الطيب... لو كان بريئاً لوجدت المحكمة ما يبعد الشبهة عنه في التحقيق الذي وقع...

تخيّل عايد أنه وقع تحقيق... بينما ما وقع هو أن السكان «ظنّوا» أن الطيّب هو القاتل، ما دام أن هناك حديثاً جرى بشأن زواجه بالجازية... شهدوا كلهم أنه هو القاتل، ورضوا له ذلك. لأن القتل في هذا المقام يستوجبه الشرف. ومن ثمة فهو شرف للقاتل! الراعي أيضاً قال إنه رأى يوم الحادث الطيّب والطالب بالقرب من عين المضيق...

الدلائل القائمة ضد الطيّب لم تكن تستدعي تحقيقاً معمّقاً. الشامبيط أيضاً رجّح أن يكون هو القاتل. قال إن ما فعله ذلك الطالب يستوجب أكثر من القتل، حسب ما تواضع الناس عليه من تقاليد سلوكية!

طبعاً لم تكن الدلائل هي التي تنقص لتجريم الطيّب. حكاية حجيلة لا تبقى في الفكر إلا بقدر المدة التي قيلت فيها!

شعر عايد منذ أن سمع قصة الجازية والطالب صاحب الحلم الأحمر، أن الدشرة في كل دقيقة تبتعد عن نفسه بآلاف الأميال! أن الجازية نفسها أخذت تبتعد عن متعلقات آماله...

لقد حكى لـه الـراعي حكـايـة جنسيـة مجنّحـة عن عـلاقـة الجازية بـالطالب الغـريب. . . قال لـه ما معنـاه، «منذ أن رأتـه التهمتـه بعينيها وبكـل أجزاء جسمهـا! قـالت لـه: «فضّني مـرة واحـدة، لا تتـردّد! اللؤلؤة لا تُتصيَّـد بـاللمس والهمس! فضّني وارتحل إن شئت. بذرتك سوف أخصبهـا مهما كـانت الزوابـع، وأضمن لأحلامك أن تبقى حيّة»! قال، «واحتضنتـه ورمته عـلى الأرض في خلّة كثيفـة، تكتنفها أشجـار. وارتمت عليه. . . ولما فارقته كان فاقد الأنفاس والحواس! عثر عليه أحد الـرعاة هنـاك فظّنه ميتاً! وما به موت. الجازية هي التي أخذت روحه منه!

ثـم قام متعثراً فاقداً لعقله، يبحث عن سيارة أجرة في جبل لا تتسلّقه الأقدام»!

إن هذه الصور التي نسجها خيال الراعي بالألوان، ملأت نفس عايـد حزناً ويأساً. كـان بإمكـانه أن لا يصـدّق، لكن الفكر إذا انتقل من العقل إلى الشعور صعب استعمال المنطق فيه. ثم لمـاذا لا يصدّقه؟ ألم يمت ذلك الطالب من أجلها؟

إن كل الآمال التي بناها، بتحريض من أبيه، طـوال سنوات البعد والهجرة، أملاً أملاً، ها هي ذي تنهار من الأساس!

لكن لماذا لا يحاول الالتقاء بالجازية؟ أليس الأفضل أن يحدّثها بنفسه ويستمع إليها؟ ماذا يتـرتّب عن ذلك؟ لـترفض إن شاءت، فالزواج لم يعد بالنسبة إليه أمراً هاماً، بعد كل ما سمـع. . . إنما رؤيتها تجعله يعود من حيث جاء، بيقين لا يخامره شـكّ في كل

مـا أشيع عنهـا. إنها لا تخشى مواجهـة أحـد! إنْ رجـع دون أن يراها سيتذكرها أبداً مقترنة بحزنه وإخفاقه. ليس من السهل أن يقتلع من وجدانه كل ما سمع عنها من إشاعات وأخبار.

الفكرة جيّدة. لكن تنفيذها لا يخلو من حرج. من يتوسّط له في ذلك اللقاء؟ هـل يخبر الأخضر بن الجبـايلي أم لا؟ وحجيلة، هل يخبرها؟ لعلها إن سمعت ذكر الجازية من فمه ستنفض يديها منه نهائياً، تزهد فيه. تزول من عينيها تلك النظرات الحالمة التي تنبعث منها عندما تتحدّث إليه. لكن إذا لم يخبرهـا وسمعت أنه التقى بـالجازيـة فسيكون سخـطها عليـه أشدّ. الأفضـل إذن أن يخبرها. إنه يشعر بشيء نحوها... شيء ارتسم في قلبـه منذ أن رآهـا للمرة الأولى وهي مقبلة في جمـع من النسـاء نحـو العـين. يتذكّر جيداً ذلك الحسن الذي فاض من وجهها وملأ المكان!

* * *

هو في أفكاره تلك وإذا بالراعي يقف عنـد رأسه! لم يسمـع وقع خطاه رغم أن الطريق حجريّ، يسمع فيه وقع الأقدام مهما كان خفيفـاً. وقف عند رأسـه فجأة، كـأنه نـزل من السماء! قـال له بابتسام ساخر ماكر:

ـ احلف أنك لم تشعر بمجيئي!

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لأني كنت أتفـرج عليـك منـذ مـدة، وأنت تنـظر إلى السـماء وتتحدّث وحدك!

ـ الـذي ينظر إلى السماء لا يتحـدّث. . . لكن لمـاذا أخفيت نفسك؟ هل تتجسّس عليّ؟

ـ ولمـاذا أتجسّس عليك؟ هـل عندك شيء يخفى عـلى الناس، أنت؟

ـ الناس كلهم عندهم ما يخفى على الآخرين!

ـ لست أنت. كل ما عندك معروف!

استـوى عايـد جالسـاً وهو ينـظر إلى الراعي بتعجب وازدراء معاً. جلس الراعي بدوره. أخرج عايد علبة السقائر تناول منهـا واحدة وناول أخرى الراعي:

ـ أين أكباشك؟ كأنك لم تَرْعَ اليوم!

ـ الأكبـاش السبعـة ليست لي. ذهبـت تـرعى مـع أحـد الرعاة. . . .

كل منهما جـذب أنفاسـاً من سيقارتـه. لم يكن الراعي يحسن التدخين، ولا متعوّداً عليه، إذ أحرقه الدخان فراح يسعل. لكنه لم ينقطع عن التدخين. ثم سأل عايدا:

ـ هل ما زلت مقيماً هنا بالدشرة؟

ـ ولماذا؟

ـ سألتك فقط.

ـ أنت لا تسأل فقط، لا شك أنك تحمل أخباراً جديـدة! الآن بدأت أعرفك. . .

ـ لا يمكن أن تعرفني لا أنت ولا غيرك! لكنْ هناك أخبار تهمّك. . .

ـ تهمّني أنا؟ ولماذا؟ ما هي هذه الأخبار؟

ـ ابن الشامبيط عاد من أمريكا نهائياً. . .

ـ وماذا يهمني إن عاد أو بقي؟

ـ عاد ليتزوّج بالجازية!

وقعت الكلمة على عايد كالصاعقة! مع أنه كان ينتظر حدوث شيء من ذلك القبيل. حكّ عقب السيقارة على الأرض حتى صار هباء. ولاحظ للراعي قائلاً:

ـ أنت تتحدث كثيراً عن الجازية!

ـ كنت كلما التقينا تسألني عنها والآن تتهمني!. . .

ـ لم نتلاق. أنت الذي تلتحق بي. . . أرجوك، منذ اليوم لا تحدِّثني عنها. فهمت؟

ـ كما تشاء! أنا ظننت أنه يهمّك حالها. أنت على الأقل الغربة ملأت قلبك حناناً على الوطن. . . أما ابن الشامبيط. . .

تأهّب الراعي لمغادرة المكان، فاستبقاه المهاجر:

ـ لا تؤاخذني على ما قلته لك. إنها كلمات خرجت وحدها. . .

لاذ كلاهما بالصمت، وراح كل واحد يفكر في استدراج الآخر للكلام. ثم نطق عايد كمن يكلم نفسه:

ـ وابن الشامبيط هذا، إذا عاد، من قال إن الجازية تقبله زوجاً لها؟

ـ تقبله مرغمة! إن أحابيل الشامبيط إذا نصبها لأحد فلن ينجو منها. من قبل كان يخشى ابن الجبايلي، وابن الجبايلي الآن ابنه في السجن، لا يستطيع فعل شيء. ثم من بعد خشي الطالب الغريب. . . أما الآن فلم يبق أمامه ما يعترض سبيله!

ـ وأنت؟

ضحك الراعي بسخرية وقال:

ـ أنا حظّي من هذه الدشرة أكباش الزيارة أرعاها!

ـ ترعاها، وتطلقها على الغرباء في عين المضيق إذا لزم الأمر!

قام الراعي مغضباً. إنه يودّ في تلك اللحظات أن يسحق المهاجر لو وجد إلى ذلك سبيلاً! وقال مهدداً:

ـ لسانك طويل! لو لم تكن ضيفاً على رجل منا لأريتك أيام غربتك مجتمعة هنا أمامك!

نظر المهاجر إليه بنظرات قاسية دون أن يردّ عليه. إن شتمه بأيام غربته آذاه، لكنه تمالك. لم يأت ليخاصم راعياً. . . ولعله أيضاً وبّخ نفسه على اتهامه تهمة خطيرة بدون حجة أو مبرّر!

لم يستطع الراعي مقاومة نظرات عايد. لوى رأسه ورجع من حيث أتى. فكر المهاجر أن الراعي يحب الجازية. «يحبها إلى الموت! لا شك أنه يعاني آلاماً مبرحة من الغيرة. ابن الشامبيط لا يستطيع معارضة راعٍ مثله»!

دخن السيقارة الأخيرة التي بقيت في العلبة، ووقف. أين يذهب؟ الوقت ما زال مبكراً ليعود إلى البيت. وأخيراً قرّر الهبوط إلى عين المضيق، حيث التقى بالراعي لأول مرة!

الطريق ضيّق ملتو، يصعب معه الهبوط والصعود على من لم يتعوّده. بدا لعايد أن الهبوط أصعب من الصعود. تكفي عثرة لدى أحد المنعرجات ليجد المرء نفسه في الهاوية. تعجّب عايد من مرونة حيوانات تلك الناحية، بغال، حمير، خيل، بقر، كلها تسلكه بصورة عادية، لا تعثر ولا تحيد...

قبيل عين المضيق بخطوات وقف، وحاول أن يتخيل شخصاً يدفع الآخر من هناك. بدا له ذلك مستحيلاً! لأنه إن حاول دفعه من وراء لا يسقط إلى جهة الهاوية، وإنما في الطريق، حيث يقف صخر عال يقيه من الهاوية. أما لو تصارع شخصان هناك مثلاً، فإنهما إن سقطا يسقطان معاً في الهاوية!

ثم حاول أن يتخيّل نفسه مقبلاً من جهة العين في اتجاه الدشرة. لا يمكن لشخص مطلقاً أن يدفعه من الوراء هناك، لأن الطريق مصعد. أما لو جاء قطيع من بقر أو أكباش أو غيرها، فإن من العسير على من يكون هناك أن يجد ما يلوذ به. بل الغالب أن يسقط في الهاوية، حيث تتربّع صخرة عظيمة على بعد نحو من العشرين متراً. وهي الصخرة التي وجد الطالب عليها قتيلاً، وقد اندقّت عظامه!

شرب من العين وجلس يستريح قليلاً هناك. أدخل يده في

جيبه ليخرج علبة السقاير، فلم يجد شيئاً. لقد دخن السيقارة الأخيرة في عين الصفصاف.

عندما عرف أن السقاير نفدت أحسّ بحاجة متزايدة إلى التدخين، وإلى شرب قهوة بدون سكر.

حاول أن يتلهّى بالمناظر الطبيعية الممتدّة تحت بصره ويتناسى التدخين، لكن تناسيه ذاك زاده تذكراً، وصار يتخيّل السقاير في كل نابت ذي ساق!

قرّر أن يصعد إلى الدشرة في الحال. لم تعد هناك أيّ متعة في البقاء بهذا المكان!

وكأن حركة الصعود أنسته التدخين وأعادت إلى ذهنه فكرة مفاتحة ابن الجبايلي في موضوع الجازية، وربما أيضاً الكشف له عن ما يراود نفسه بشأن مقتل الطالب. فهو يكاد يعتقد أن الطالب لم يقتل من طرف الطيّب، وإنمامن طرف آخر! إحساس قويّ، يدفعه إلى ذلك الاعتقاد، منذ أن لاحظ غضب الراعي وانفعاله الشديد عندما صارحه بذلك!

في موضوع الجازية فكر أن يقول لابن الجبايلي، إنه أساساً جاء من أجلها، ثم لما علم بما جرى، وبخطبتها للطيّب، عدل عن مشروعه الأول، وهو الآن يرغب في الزواج بحجيلة... إن قبلت هي وقبلوا! إن زواجاً مثل ذلك سيحقّق له أملاً صغيراً من بين الآمال العريضة التي حفزه على بنائها حديث أبيه في أرض الغربة... إن الجازية ضاعت منه نهائياً. هو يتيقّن ذلك الآن، بعد كل الذي وقع... لكن زواجه بحجيلة سيدخل

أجزاء كبيرة من أحلامه وأحلام أبيه الماضية، في بناء مستقبله الصغير! سيجعله على كل حال يحيا حياة سعيدة!

أليست حجيلة هي الصورة الأولى التي ملأت نفسه بهجة وإشراقاً؟

صحيح، عندما رآها مقبلة على العين، في جمع من النساء، لأول مرّة، لم تكن في ظنّه هي حجيلة بنت صديق أبيه الأخضر بن الجبايلي، كانت الجازية العظيمة التي قطع من أجلها البحار!

ترى ماذا ستكون عليه مشاعره لو تمكّن من رؤية الجازية؟ كيف ستتعايش الصورتان في نفسه؟ إنها تجربة خطيرة. لأنه لو محا حسنُ الجازية من نفسه حسنَ حجيلة محواً كاملاً، لخسر أجمل ذكرياته وهو يضع رجله لأول مرّة في هذه الدشرة. ستضيع منه حجيلة والجازية معاً. لكن التجربة تستحقّ الممارسة. إنها بمثابة مغامرة يقدم عليها المرء، رغم علمه بما يحفّها من مخاطر!

إن فكرة مصارحة صديق أبيه بكل شيء رسّختها الطريق الملتوية بين عين المضيق والدشرة في نفسه، بحيث لم يصل إلى البيت حتى كانت قد تشكّلت في صورة قرار!

فكَّر عايد أن يذهب إلى ساحة الجامع حيث توجد بعض الدكاكين البسيطة لاشتراء الدخان قبل العودة إلى البيت. خشي أن يكون قد نفد ما كان معه من علب سقائر.

كانت الساحة مكتظّة بشكل غير عاديّ. لاحظ هناك

أشخاصاً غرباء عن القرية، يبدو من سحناتهم أنهم من المدينة. لم يكن الأخضر بن الجبايلي هناك. كان الراعي جالساً على حجر قرب أولئك الغرباء يتنسّم الأخبار. عندما رأى عايداً أدار رأسه إلى ناحية أخرى.

استفسر عايد عن أولئك الغرباء فقيل له إنها فرقة سينمائية جاءت لتصوّر فيلماً عن الدشرة قبل أن يرتحل السكان إلى القرية الجديدة التي هي بصدد البناء...

لكن القرويّ الذي أخبره استعمل عبارة أخرى. قال: «جاؤوا لتصوير الدشرة قبل أن يغرقها السدّ»!

لم يَرَ في ذلك ما يستحقّ الاهتمام. هو يعرف هذه الأمور. بل رأى أن هؤلاء السينمائيين جاؤوا لتشويه حقيقة الدشرة. لماذا لم يأتوها طوال كلّ السنين الماضية؟ قبل أن يفكّر في بناء السدّ وترحيل السكّان؟ بل قبل أن يعلن السكّان رفضهم للرحيل عنها؟ إنهم في نظره كالغربان، يحومون حيث الموت!

فتح باب المراح ليدخل، قابلته حجيلة التي كانت واقفة على عتبة باب الحجرة العائلية! ظهرت له كقطعة من جمال سماويّ أهديت لهذه الدار! إن حجيلة لا تختفي صورتها من النفس بسهولة....

عندما رأته حيّته بابتسام:

- على سلامتك يا عايد!

ردّ عليها التحية وأغلق الباب وراءه، فأتت إلى ملاقاته

برشاقة وخفّة، والابتسام يكسو وجهها الجميل وقبّلته على خدّه! امتلكته الدهشة! لم ينتظر ذلك منها تماماً! وفي دهشته تلك لم يجد على لسانه إلا السؤال التالي:

ـ أين أبواك؟ إنني أراك وحدك هنا!

أجابته بتغنّج:

ـ أمي أرسلت في طلبها العجوز عائشة، أما أبي فلا أدري أين هو! أتشرب قهوة؟

ـ بكل سرور، من أجلها عدت إلى البيت هذا الوقت!

بالتغنج نفسه مع عتاب خفيف قالت له:

ـ إذن لم تعد من أجلي! عدت من أجل القهوة فقط!

لم يدر بِمَ يجيبها على هذا التدلّل الحلو المداعب لأوتار القلب الذي لم يكن ينتظره بهذه السرعة! قال لها بتعلثم:

ـ لم أعد من أجل القهوة فقط... وإلا كنت شربتها بمقهى الدشرة!

ـ احلف!

كلماتها الجريئة أبهجته وأدهشته معاً. أجابها في نفسه: «اقسم لك بكل الشوق الذي يعتلج في قلبي إليك...» ثم قال:

ـ أقسم لك بكل الأيمان التي تريدين

انصرفت لتعدّ القهوة بخطى متغندرة، بينما هو جلس على الدكة الحجرية المعتادة، وراح يحلم...

ان الكلمة العذبة تفتح في لحظة المنغلق من الآمال! ما أحلاها كلمات لاقته بها كما يلاقي الظمآن بالماء الفرات! أحسّ عايد أن شيئاً يتدفّق حياة حالمة يجري في عروقه. أحسّ أيضاً كأن نداء خفيّاً يصل إلى وجوده الداخلي، آتياً من عيني حجيلة! هناك عواطف لا يصل العقل إلى إدراكها. يدركها الشعور وحده بمنطقه الخاصّ. لكن الإحساس الأكثر حدّة والذي غطّى العواطف الأخرى هو الرغبة الجنسيّة الجامحة التي غمرته، منذ أن قبّلته على خدّه وخاطبته بذلك التغنّج المغري! إن حضور الأنوثة بأجمل صورها في هذه الفتاة العذبة، ملأ الجوّ النفسيّ والمادّي لعايد. لكنه مضطر لكبت مشاعره الجنسية رغم كل عنت يجده في ذلك. إنها ابنة صديق أبيه الحميم. هذا الصديق الذي أنزله بين أهله كأحد أبنائه. هل يسوّل لنفسه «خيانة» أخوّة مثل هذه؟ لا، لن يكون ذلك. لن تحصل منه خيانة لا لصديق أبيه ولا للفتاة. هي ما تزال غرّة، لا تعرف مداخل الرجال ومنقلباتهم... إنه يدرك ما يملك من قدرة على إغرائها وجرّها إلى التفتّح إليه... لكنه لن يفعل ذلك. سيكون أميناً عليها أكثر منها على نفسها. إذا قدّر له أن ينال منها شيئاً فليكن ذلك بالصورة المشروعة التي ترضي ما تواضع عليه الناس من آداب.

ليس سهلاً عليه أن يصدّ تلك الرغبة الجامحة التي وتّرت جميع جسمه وجعلته يترنّح سكراً بأنوثة هذه الفتاة الحسناء التي يملأ حسنها وشبابها الدنيا!

لكن من أين لـه أن يختار؟ عليـه أن «يقتل» غـريزتـه الجنسيّة أمـامهـا. لا بـدّ لـه أن يتحـدّث مـع ابن الجبـايـلي عن كـل شيء بصراحة... لا بدّ له كذلك أن يسعى لمقابلة الجـازية، للسـماع منها مباشرة. كيف يفكّك مشاريعـه لمجرّد رغبـة عابـرة؟ لا. ثم كيف يستـطيـع أن يعـود من حيث أتى دون أن يتمكّن من رؤيـة ذلك الجمال الأسطوري الذي يتحدّث عنه العامّ والخاص؟ جمال الجازية!... ذلك الجمال الـذي أتى به من آخـر الدنيـا إلى هذه الـدشرة المتشبثة بـالجبل؟ لا، لا يمكن أن يفسـد مشاريعـه بهذه السهولة. ينبغي أن يقاوم هذه الرغبة الجنسيّة الملحّة...

وراح يقـرص الأمـاكن الحسّـاسـة من جسمـه ليخفّف من رغبتـه... لكن عبثاً يحـاول... هـا هي ذي حجيلة مقبلة بـالقهوة. يحـاول أن لا ينظر إليهـا. ينـطلق من أعـماقـه المتّصلة بالكون وبحجيلة توق إليها لا يوصف! لا بـدّ أن يقـاوم. يبقى نظره مصوّباً نحو الأرض. لكن الأرض ليست جسماً عازلاً، إنها تصله بها. ها هي ذي تقف أمامه. إنـه يرى رجليهـا المخضّبتين بالحنّاء! لا يرفع رأسه إليها. تكلمه:

ـ عدت إلى كآبتك من جديد!

صـوت عذب شفّـاف جنسيّ... نعم، صوت جنسيّ، يهـزّ بعنف منابت رغبته. لا بد أن يقاوم. إنهما وحدهما... لا بدّ أن يكبت رغبته! إنها تتحدّث إليه بصوت حنون كأنه يناديـه! لا بدّ من المقاومة... ما تزال واقفة أمامه تنظر إليه والقهوة في يـدها. يرفع رأسه إليها بخجل!

ـ مالك؟ عايد... إن وجهك كالطماطم احمراراً!

أضحكه الوصف في غمرة توتّره...

ـ لا شيء. حرارة الطقس...

ـ لقد وضعت لك غصنة شيح في القهوة. تحبّ الشيح، أليس كذلك؟

لا يحبّ الشيح ولا ذاق مرارته. حدّثه أبوه عن القهوة بالشيح... لكنه قال:

ـ أحبّه.. أحبّ كل ما يأتي منك!

انصرفت رقابته العقلية كلية إلى العمل ضد غرائزه وبقي اللسان بدون رقابة!... لكن الفتاة لا تستوفي فهم أبعاد الكلمة. تتساءل بفضول:

ـ صحيح؟

تجلس إلى جانبه، تنظر إليه. لا يستطيع مقاومة نظرها. الرغبة الجموح تزداد جماحاً... يخرج سيقارة. تلاحظ له:

ـ تدخّن كثيراً. هل جميل التدخين؟

ـ ليس جميلاً. إنما تعودته فقط.

ـ أنا أحب رائحة الدخان.

ـ تحبّين رائحته؟ لماذا؟

ـ لست أدري... لكن لا أحب أن أرى المرأة تدخّن. كانت عندنا فتاة طالبة متطوّعة في السنوات الماضية، اسمها صافية، تدخّن!

ـ لماذا لا تحبّين أن تدخّن المرأة؟

ـ لست أدري. الدخان يلائم الرجل أكثر من المرأة.

ـ ربما لأن الرجال عادة هم الذين يدخِّنون أكثر من النساء؟

ـ ربما. على كل حال، أنا إذا شممت رائحة الدخان، في الحين يخطر ببالي الرجل، لا المرأة!

«إنها فتاة غريبة! كل كلمة منها تبعث في النفس ألف إثارة! ها هي تفعل ذلك عمداً؟ لا، لن أدع غريزتي تتغلّب على عقلي. ماذا يبقى من إنسانيتي إذا تركت الغريزة تتصرّف وحدها؟ لكن كلماتها كلها فيها رائحة الجنس! كأنها تفعل ذلك عمداً لتثيرني!».

ـ فيمَ تفكّر؟.

ـ لا أفكّر، أتذكّر...

ـ ماذا تتذكّر؟

ـ أبي كان دائماً يتحدّث عن أبيك وعن أمّك...

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ لا شيء. كان يحبّهما حباً عظيماً. لم يذكرهما مرة واحدة بسوء أبداً!

ـ ونحن نحبّك أنت الآن. كلنا نحبّك!

كأن هذه الكلمة جاءت بمثابة المسكّن لما كان فيه من حرارة. إنه لم يحسن الحديث. لم يعرف كيف يتّقي هذا اللون من المثبّطات للعزائم. كأنها تقول له، «أنت أخ لنا، وحبّنا لك حبّ

أخوي . . . » وهو ليس في حاجة إلى حبّ أخوي. بل هو في أمسّ الحاجة لحب عارم يغرقه وينسيه نهائياً الجازية. أجابها متسائلاً، ليتثبت من مضمون كلماتها:

ـ تحبّونني كأخٍ غريب، أليس كذلك؟

ـ مالك تتحدّث هكذا؟ أبي وأمي يحبّانك كما يحبّان الطيّب!

ـ أعرف ذلك. لكن. . .

ـ لكن ماذا؟ أنت لست غريباً. أنت. . .

ـ أنا ماذا؟

احمرّ وجه الفتاة خجلاً. خفضت بصرها إلى الأرض وقالت:

ـ اسأل نفسك. . إنّك منذ دخلت بيتنا تبدّل. صار جميلاً. وصرت أشعر بالسعادة فيه. . .

«إنها خطيرة هذه البنت! تعنف بي كل هذا العنف! أنا بشر! بشر. . . لم تدر أنني بشر»!

أحسّ كل غرائزه تتّجه إليها. تحتضنها. تمتصّ منها كل مقومات أنوثتها! لقد تحوّل ذلك الاهتزاز الداخلي إلى اهتزاز خارجي ملحوظ بالعين! إن جسمه صار يرتعد.

سألته وهي تراه كذلك:

ـ مالك ترتعد؟ هل أنت مريض؟

ـ لا لا، لست مريضاً. أحياناً عندما أكثر التدخين أرتعش هكذا. إنها حالة عصبية. أخرج أستنشق قليلاً من الهواء. . .

تـأهّب للقيام لينفـذ ما قـال فردّت عليـه بكلمـة ثـطتـه عن الخروج:

ـ الهـواء الذي تستنشقـه هنا بـالمراح وبـالخارج سـواء! لعـل القهوة كانت ثقيلة؟ أتريد أن آتيك بطاس من ماء؟

ـ تفعلين جميلاً!

اختلطت أفكـاره ومشـاعـره. لم يـدر مـاذا يجب أن يفعـل بالضبط.

عادت بطاس الماء وهي تقول ضاحكة:

ـ بـارد يزيـل الهمّ من عـين الصفصـاف، حيث التقينـا لأول مرة!

«يا لها! عـادت إلى تضييق الخناق عـليّ من جديـد! ينبغي أن أخـرج. ينبغي أن أهرب! لا أستـطيع المقـاومـة. لا أقـدر عـلى البقاء معها هكذا... لا بد من الهروب».

تناول منها طاس الماء شاكراً. تجرّع منه جرعات، وإذا بالباب ينفتح، ويدخل الأخضر بن الجبايـلي، فتزول عنـه في الحال كـلّ تلك الحرارة التي كانت تغشـاه! يحييه ويعلّق بنـدقيته في معـلاق بالحائط. ويسأل ابنته:

ـ وأمك، أين ذهبت؟

ـ أرسلت إليها العجوز عائشة....

ـ ابعثي طفلاً من أطفال الجيران ليناديها. عندنا ضيوف الليلة للعشاء.

ـ ضيوف؟ من هؤلاء؟

ـ لماذا تسألين؟ سينمائيون جاؤوا يصوّرون القرية. . .

ـ يصورون القرية؟ أيّ شيء هم السينمائيون؟

ـ كم أنت ثرثارة! إنها تسمح في الدنيا بكاملها من أجل الثرثرة!

يجيبها عايد موضحاً:

ـ السينمائيون هم الذين يشتغلون في السينما. وهي آلة تعرض فيها أفلام. . .

ضحك الأخضر من التفسير الذي قام به عايد. وقال:

ـ إنها لا تفهمك ولو قضيت النهار كله تفسّر لها ما هي السينما. لأنها لم ترها في حياتها ولا رأت ما يشبهها. . .

شعر عايد بشيء من الحرج. وأدرك أن تفسيره لم يكن تفسيراً. . . فحاول أن يستدرك ذلك بالحديث عنهم:

ـ قال لي أحد القرويين جاؤوا ليصوّروا الدشرة قبل أن يرتحل السكان منها. . .

ـ الدشرة هي جنّتنا وهي سجننا! لا يستطيع أحد أن يخرجنا منها!

كلمة السجن ذكرت عايداً في قراره بالحديث إلى الأخضر بن الجبايلي عن موضوع سجن الطاهر، خطر بباله أن يخبره أولاً بأنه

ذهب اليوم إلى عين المضيق، حيث قتل الطالب، ويخبره عن كل ملاحظاته بخصوص تلك القضيّـة... وكانت حجيلة حينئـذ قد ذهبت تبحث عن طفـل تـرسله إلى أمهـا... لم يشعـر عـايـد بخروجها إلا عندما سمع الباب ينغلق وراءها...

الزمن الأول:

- 5 -

أغلق الباب بعنف، كأنه يؤكّد بذلك أن السجن مبنيّ على العنف. . . أدار المفتاح في القفل بصورة آلية إيقاعية. وخاطبني من بين القضبان:

- أنت الآن لا تحتاج إلى تفكير، سيملأ بثرثرته كل حواسّك!

قال ذلك وأصبعه تشير إلى «الشاعر» الذي كان ينظر إليه بسخرية يصعب تصويرها!

انصرف السجّان دون أن يسمع كلمة واحدة من الشاعر ولا مني.

كان الشاعر ينظر إليّ وإلى جدران الحجرة. ثم استلقى على السرير القذر. أخذ سيقارة من علبة بجيبه الصدريّ. فركها بأصابعه قليلاً ثم أشعلها. لم يعرض عليّ سيقارة، ولا نبس بكلمة. كأنه فعل ذلك ليكذّب السجّان!

أنا أيضاً لم أكلّمه. لم أشعر بالحاجة إلى الكلام. الفضول الوحيد الذي كان يدور بذهني، هو: لماذا سجن؟ إذا كان حقيقة

شاعراً فمن غير المعقول أن يسجن. شعراؤنا لا يقولون إلا الكلمة الحلوة التي تسرّ. . . قد يكون هذا الشاعر شاذّاً، أغضب الذين هم في حاجة إلى الاشتغال بنعم اكتسبوها والأعين نائمة. . . أو ربما أراد أن يلفت الأنظار إليه ليس إلا!

استرقت النظر إليه فوجدته رائق الملامح، نحيفاً، يبدو عليه الإرهاق، ربما من جرّاء المرض الذي نقل بسببه إلى المستشفى. . .

اللافت للنظر فيه حركات يديه البهلوانية الجميلة، وأصابعه البيضاء الطويلة! بدون أن أشعر انتقل بصري من أصابعه إلى الألفات المنقوشة على جدران الحجرة. . . ألفات رفيقي الذي لم تصل به إلى الباب!

فكرت بحزن في موت ذلك السجين وحيداً! لا شك أن الأمل لم ينقطع من نفسه حتى اللحظة الأخيرة. . . لكن نظري إلى الألفات شكّل أمامي صورة الأحمر، لا صورة السجين! رأيته واقفاً بباب المراح، الباب المؤدّي للشارع. ورأيت حجيلة بعتبة باب الحجرة العائلية، حيث تحبّ الوقوف. كانت تنظر إلى الأحمر وهو ينظر إلى ناحية أخرى. ثم امحت تلك الصورة لتحل محلّها أخرى. . . أرى جثّته على الصخرة، أسفل عين المضيق. عيناه مفتوحتان تحلمان بشمس لن ترياها أبداً!

تتكثّف سحب الماضي في نفسي. أختنق. أنظر حواليّ فلا أرى سوى الشاعر الممتدّ في سريره القذر.

أبحث في ذكريات الماضي البعيد، تختلط الصور في ذهني... أرى «زردة» ضخمة حول زمزم، دراويشها يهتفون بنايلة وأساف العشيقين اللذين كتب عليهما المسخ، ثم القداسة. وتبدو لي نايلة في صورة الجازية، وأساف في صورة الأحمر. وتختلط الأصوات والصور في ذهني، فأرى هاجراً خلفت صاحبة الراية. حلّق حولها الفجّار والتجّار! وأرى الشامبيط في لباس «شريف» أمريكي، يقود العجوز عائشة بنت سيدي منصور إلى حلقة الرقص حول زمزم! أشعر بالدوار... هل أنا مريض؟

تنطوي المسافات والفضاآت والذكريات، وأسمع صوتاً بغيضاً يعلن:

- «محكمة»!

«... أنت متهم بقتل... هل عندك ما تقول»؟

نعم سيدي الرئيس، لديّ ما أقول، لكن ليس لك. أنت لا تهمّني. أقول كل شيء للشارع الطويل، حيث المتسولون والعاطلون، والثوّار والمجرمون، والكفرة والفجرة... ليس لك أنت! أنت محكمة! أنت شخصية اعتبارية، مهمّتك الإدانة! أقول ما أقول للذين لا يستنكفون من رمي قاذوراتهم في الأحياء الجميلة، تحت شرفات الأغنياء... أقول لهم، إن هاجر عندما عادت إلى إسماعيل لم تجده، وجدت في مكانه سيارة فخمة بأربعة أبواق، يركبها رئيس لشركة متعددة الرؤوس كأفعى الأساطير!

«. . . حكمت المحكمة بسبع سنوات سجناً على المتهم، مع التنفيذ الفوريّ. . . » لا داعي «للفوري» سيدي الرئيس. أنا في السجن منذ الولادة! لا جديد في حكمك بالنسبة اليّ. أنت حكمتَ حكماً ألف حيثياته الدراويش وصادق عليها أعيان الدشرة وأولياؤها السبعة! أنت ضحيّة للنصوص وأنا ضحيّة للدراويش. حكمك في الواقع يشبه ختماً في نهاية مرسوم، وضعه ملك لا يحسن القراءة! أنت واسطة بين تقاليد الدشرة وتقاليد السجن!

أحد القرويين جاء يطمئنني وأنا أقاد إلى السجن. قال: «لا تخف. بالسجن تصير رجلاً»!

أيّ سجن تعني أيّها الرجل الطيّب؟ السجن الذي كان يجعل من الضعاف رجالاً أقوياء سجناؤه كانوا أحراراً وحرّاسه عبيداً! كانت أناشيد الحرية فيه تتحدّى السلاسل والمقاصل. كان أهله معنيين بما يجري خارج جدرانه. . .

أما هنا فأنا لست معنيّاً بشيء. هناك من يفكر مكاني ويبني مكاني. . . رأسي في عطلة!

قرية كاملة اهتزّت من أقصاها إلى أقصاها لرقصة فلكلورية قام بها فتيان! بعض القرويين انتظروا خروج الدجّال والدابّة ونزول عيسى والشمس تطلع من الغرب. . . كلّ شيء جاهز لقيام الساعة، بفضل رقصة فلكلورية! جدّنا القديم «آبلي» عندما كان يقيم حفلاته الصاخبة السكرى لم يخطر على باله قيام الساعة! كان أذكى منا. . .

سكان الدشرة عندما رأوا الجازية والأحمر يلعقان المناجل توقّعوا قيامها في اللحظات الموالية!

الأعيان منهم قالوا لأبي: «شرفك من شرف القرية. لست وحدك الملطّخ بالعار... تريّث!».

السكان خافوا.

الرعاة غضبوا.

الجازية لم تخف، ولم تغضب. ممن تخاف؟ تزوّجت بالحلم في اليقظة، حلم بطول الصفصاف! شعره ذرويّ الصفرة والنعومة... يا للتطوّع يمزّق الآفاق السوداء في لحظة. يتحدّى مناجل الدراويش!

حروق المنجل الذي لعقته ستبقى في لسانها إلى الأبد. لن تمّحي الذكرى. الجازية أثبتت للمتطوّعين أن الدشرة ليست فقط الأولياء والدراويش والماضي. هي بالدرجة الأولى الشباب الذي يسبغ على الحياة لونها المشرق. هي الحلم! بلا حلم تصير الحياة عجوزا.

أصبحت الجازية من الغد تغنّي، وأصبحت أغنية!

سألت صافية الأحمر:

ـ ألم تخف أن يقتلك أهل الدشرة؟

ـ وماذا فعلت؟

ـ دخلت وسط نسائهم وجذبت الجازية لترقص معك!

ـ أبو الجازية شهيد.

ـ كل السكان آباء لها. ثم إن رقصك معها كان مثيراً!

ـ لماذا؟

ـ لا أستطيع أن أعبر لك بالكلمات... هو شيء يتجاوز الرقص والمناجل!

ـ يتجاوزهما في أي شيء؟ في التموّج أو في الاشعاع؟

ـ فيهما معاً.

ـ لماذا لم ترقصي أنت؟

ـ خفت المناجل.

ـ لماذا تخافينها؟ إنها مناجل الفلاّحين نفسها التي تتحول في الليل إلى مناجل دراويش!

ـ الجازية أيضاً درويشة، ترقص كالدراويش الآخرين.

ـ يبدو أنك تغارين منها!

ـ ولِمَ أغار؟ أنا لا أعشق أحلامك.

ـ وهي لا تعرفها!

ـ لست أدري.

سمعت هذا الحوار بحروفه وأصواته المرات العديدة مسجلاً على شريط! لست أدري إن كانت صافية محتفظة بكل الأشرطة المسجّلة بالدشرة؟

الأحمر وأحلامه الحمراء. مناجل القمح تُحمى للألسنة. الصفصاف الطويل. أغاني المغامرة تدندن بها شفاء القرويّات. الصحرة حيث رأيت الأحمر جثة هامدة... كل ذلك يمثل

أمامي! تتّسع جدران السجن، تتّسع...

الأحمر أراد أن يغرس حلمه الأحمر في قمة جبل صخريّ، ليضيف إليه لوناً لا يعرفه!

لا، يا رفيقي، لن تستطيع. تركت السهل الخصب وجئت تغرس حلمك في الصخر! الجبل يرفض أن ينبت غير الضباب!

لا، يا رفيقي، لن ينبت غرسك غير الأغاني العذاب يغنّيها المحرومون... لكن رقصك أدخل البهجة في نفوس القرويات المراهقات منهن والعانسات! لم تعد منذ تلك الليلة الحمراء حياتهن رتيبة متكررة كلياليهن وأيامهن. وأصباحهن وعشاياهن صار لها الآن أغان ناغمة. تلك الدشرة البائسة التي يحيين بها أصبحت ذات عطر وآفاق وردية! من يدري، قد لا تنتهي المغامرة بموتك؟ قد يأتي مغامرون جدد يخطبون الجازية المتجدّدة في كل القرويّات! إن منجلك الأحمر غيرّ عالمهن الوجدانيّ. لم يكن يعرفن أنهن يزخرن بكل تلك العواطف! كان الصفصاف لديهنّ هو النموذج الأعلى للحلم! لكنه كان لا يهتزّ لا لنظراتهن الحالمة ولا للدامعة. عواطفهن لم تكن تفيض، كانت تغيض في مسار الأيام الرتيب! ثم جئت يا الأحمر! جئت ورقصت وصرت صفصافاً من نوع جديد. صفصافاً ذرويّ الورق، فريكيّ القسمات! راقصت الجازية، ويقال إنك قبّلتها أيضاً... ولعقتها منجلاً واحداً فاحترقتها. أنت متّ. لكن الحياة لم تمت. والجازية حياة! أما أنا فقد كنت غبياً... عندما لا يكون المرء عنصراً في المأساة، ولا ممثلاً لدور، فهو متفرّج غبيّ!

«محكمة»!

سيّدي الرئيس، الطالب المتطوّع قتله حلم أحمر، في قرية أحلامها خضراء! الأحمر ليس لوناً لأصباح الدشرة ولا لأماسيها. هو لون المغامرة! أقسم لك، سيّدي الرئيس، أنا لست مغامراً. أحمل في رأسي أربعة عشر قرناً من الصبر والقناعة والمكتوب! المغامرة عيونها ممتلئة بالجرأة والمستقبل. عيناي أنا، هاهماتان. انظر إليهما: إنهما ممتلئتان بالماضي! اسأل الجازية... إنها تعرف الكثير! إذا كانت لم تنجح في مبادرتها الأولى مع الطالب، فالسبب بسيط: حدّثها عن حلمه الأحمر أكثر مما حدّثها عن الطريق إليه... هو كان مغامَراً، وتلك غلطة من أغلاط المغامرين، يفكرون في الحلم أكثر من التفكير في الطريق إليه!

علاقتي به أنا، كانت علاقة تقابل. أنا واياه لم نكن على ساعة واحدة. ولا على خطوة واحدة. خطاي أنا ثقيلة في التقدّم، تشدّها إلى الوراء قرون لا ترحم!

لقد التقينا في مكان واحد بزمانين مختلفين!

أعاهدك يا رفيقي، سأرسم لك قوس نصر في جدار من جدران هذا السجن بأظافري. قوس نصر من منجلين التقيا، منجل فلاح ومنجل درويش!

أتذكّر ذات صباح من أيامه الأولى بيننا... وقف بالباب فرأى الأفق لا يبعد عنه بأكثر من أمتار. كانت بيوت الدشرة المحاذية للشارع تسدّ الآفاق البعيدة. عاد إلى الحجرة يتأمّل

الجدران المبيضّة بالجبس الخام. لم يجد فيها ما يتلهّى به. التفت اليّ يسألني: «وكأس الحليب متى نشربها؟». نهضت وجئته بقدح من طين سوّدت أطرافه النار. أفهمته بذلك أن الدشرة ليست الجنّة البورجوازية التي يحلم بها سكان المدن! قرّب القدح منه وأداره في يده ثم وضعه. وقام يتأهّب للخروج وإذا بأختي تملأ القاعة، تحمل صحناً نحاسياً، لا نخرجه إلا في المناسبات المهمّة يشتمل على فطيرة بالبيض والسمن والعسل، وإبريق قهوة وحليب مغلي!

اللعينة! طلع الغضب إلى رأسي طفرة واحدة كمرجل يغلي أزيل غطاؤه! أظلمت الدنيا في عيني! كنت أريد إذلاله، لست أدري لماذا؟ فأعزّته!

جلس بطريقة معوجّة. لم يكن يحسن الجلوس على الأرض مثلنا نحن القرويين. أكل الفطيرة كلّها، رغم أنها لنا معاً وتكفينا وزيادة... شرب كل ما في الإبريق من قهوة! لم ينظر إليّ ولم يكلّمني! قلت في نفسي: «انتقم مني اللعين»! فكرت أن أدخل إلى البيت العائلي وأشبع حجيلة ضرباً. لكن الغضب كان زال عني. لم يكن في وسعي افتعال غضب جديد لضربها... كان ما عملته مخالفاً لأصول السلوك في القرية. كان عليها أن تستأذنني أنا الرجل(!) فيما تأتي وما تذر... لو فعلت ما فعلته مع قروي لحقّ عليها القتل!

لعلّ ما منعني عن ضربها تلك الخلفيّة المدرسية... لو كنت قروياً فقط بدون قراءة، لأظهرت لها رجولتي في أفظع

صورها... قلت في نفسي: «الكلبة! إنها تحبّه»!

قطع أفكاري «الشاعر»!

ـ ما اسمك؟

تأمّلته وهو في سريره القذر المقابل لسريري. الجدار المحاذي له جدار «بورنوغرافية» المساجين السابقين... تعجّبت من سؤاله! منذ أن عاد من المستشفى لم يكلّمني بكلمة. لم ينظر إليّ حتى النظر، والآن يسألني عن اسمي!

ـ اسمي الطيّب.

ـ الطيّب لا يسجن!

ـ هل صحيح أنت شاعر؟

نظر إليّ بنظرات متسائلة تشوبها السخرية، وقال:

ـ أنا شاعر شعارات!

ـ لم أفهم!

ـ ليس هناك ما يفهم.

قالها في شيء من الحزن وأضاف:

ـ عندما يريد أن يكون الإنسان نزيهاً ليس هناك مكان أفضل من السجن!

ـ إذن أنت نزيه!

ـ أنا عنصر من عناصر التقرير الأدبي الذي تعدّه النقابة...

ـ نقابة من؟

ـ نقابة الشعراء.

- هل للشعراء نقابة؟

- بسببها أنا هنا الآن، يمنعني لساني من الصمت. والكلام ممنوع... لأن النقابة ترى أن ضميري جزء من الضمير المسيّر! حاولت أن أفهمها أن الشارع مكتظّ بالنشّالين الذين ينتشلون مستقبل أجيال كاملة. قالت: وما دخلك، أنت تدافع عن النقابة أم عن الشارع؟ رفضت، أرسلتني إلى ما وراء الطبيعة...

- ما وراء الطبيعة؟

- نعم، ما وراء الطبيعة، حيث ينعدم الزمن وتبقى الأحداث قارّة مجسّمة بأربعة أبعاد. مشاهدها لا تفوت الرائي، يستعيدها إذا شاء ألف مرة...

- لم أفهم شيئاً مما تقول!

- ليس هناك ما يفهم.

قلت في نفسي: دراويش الدشرة ليسوا وحدهم الدراويش...

أشعل سيقارة أخرى، وسألني:

- يبدو أنك تريد أن تخرج من السجن، أليس كذلك؟

لم أجبه. إن السجان مصيب... أضاف قائلاً:

- إلى أين تذهب؟ ما أنت فيه هو سجن صغير في سجن كبير! المساحة التي هنا أو خارج السجن متساوية. لا تتوهّم أن هنا السجن وفي مكان آخر الحرية. كلنا

سجناء. إنها البذرة الأولى التي وضعت في آدم... أتعرف ماذا يقول أهل الكمون؟ أهل الكمون هم متصوّفة مسلمون، يقولون: «أرواح المخلوقات البشرية أنشئت دفعة واحدة، ووضعت بذورها في آدم، فرداً، فرداً...» بيكاسو، فرانكو، آليندي، بينوشي، راسبوتين، لينين، سالزار، اميل كاركابرال، عرفات، بيغن، شيوخ البترول والخميني، ناصر والسادات، بوجو، الأمير عبد القادر، غاندي، هتلر، لومنبا، تشومبي، بومدين، باش آغا بوعلام... كلهم خلقوا دفعة واحدة، ووضعوا في آدم... أنت أنا، السجّان، النقابة، الخنساء، صاحبة الراية... الجميع أنشئوا دفعة واحدة»!

أضفت في نفسي: «الأحمر، الشامبيط، الجازية، الدراويش، حجيلة، رئيس المحكمة، الرعاة...».

واصل يقول:

ـ لذلك، لا فرق بين ما هنا وما وراء الجدران. بين الطبيعة، وما وراء الطبيعة. بين المسرح والبرلمان... فهمت؟

لم أفهم شيئاً في الحقيقة. الدشرة قالت: «ثقافتك لا تغنيك عن الالتزام بقروّيتك. لا بد أن يقتل هذا الغريب الذي جاء يزرع أحلامه الحمراء في جبلنا الأخضر! يريد أن ينقلنا إلى زمن لا نعرفه»!

صحيح، المسألة مسألة زمن. الأزمنة في نهاية الأمر هي التي تفرق بين أجيال الناس. تقدّميّ اليوم هو رجعيّ الغد... ومع

ذلك لا بد أن يُصنّف الناس حسب أزمنتهم، ولو أنهم، كما قال هذا «الشاعر»، وضعوا دفعة واحدة في آدم!

ـ لم يقلقك حديثي، أليس كذلك؟

ـ لقد أجبت بنفسك!

ـ أقول لك إذن أشياء أدركتها هنا في السجن... أشياء بسيطة لكن الناس لا يفهمونها بسهولة! مثلاً، المشي، لو مشيت أمام جميع الناس إلى الوراء لضحكوا عليك! أنا شخصياً جرّبت ذلك، مشيت إلى الوراء لأعرف ردّ فعلهم، ضحكوا! بل وسموني بالجنون! لكن إذا كان تفكيرك وعقلك وحكمك على الأشياء ورائياً، ماضوياً، لا يضحكون! بيد أن المشي إلى الوراء أهون في مصائر الناس من التفكير الورائي! لذا قلت مرة للنقابة، يجب وضع كل الرجعيين في المستشفيات العقلية، لأنهم مرضى كمرضى الأعصاب. بل مرضهم أشدّ أذى للمجتمع... أتدري ماذا كان ردّ النقابة؟ أنني أحبّ الهدم، ولذلك لا بدّ لي من تغيير الجو! لهذا أنا هنا، لأغيّر الجوّ!

لم أنبس بكلمة. أفكاره شوّشت أفكاري. يشبه في حديثه أحياناً الأحمر... أتذكّر أني قلت له ذات ليلة: «إن الدشرة لا تستطيع أن تصبر إلى ما لا نهاية على استفزازاتك». وكان فعلاً استفزّها كثيراً ليس بالرقص فقط... أجابني: «الدشرة لا تستطيع أن تفعل شيئاً ضدّي، أنا فكرة»!

وكان الحديث يدور بيننا حول رحيل الدشرة من الجبل إلى

السهل. طبعاً، القرية الجديدة التي يساندها الشامبيط، ويسعى لتُبنى في أسرع وقت ممكن ليرتحل السكّان إليها، لم يكن يأبه لها، ولا يعلق عليها أدنى أمل... كان يودّ قرية أخرى من نوع آخر، يشارك هو في وضع تخطيطها مع رفقة ممن يثق بهم. قلت له إن القرية تعارض كل القرى الجديدة مهما كان شكلها. حاولت إفهامه بما أعرف من منطق: «لماذا تريد أن يرحل السكّان عن دشرتهم إلى قرية أخرى؟ كأنك لم تفهم بعد أن الدشرة ليست بيوتاً فقط، بالنسبة للسكان. إنها تمثّل ماضيهم وماضي أجدادهم. إنها كل شيء عندهم». ردّ عليّ بسخرية وإشفاق: «هل هم في حاجة إلى الماضي أم إلى المستقبل؟» قلت له: «هم في حاجة إلى الماضي وإلى المستقبل بنفس الضرورة ونفس المرارة. الانسان لا يحيا ببُعْدٍ لم يوجد. يحيا أولاً بالبعد الموجود. الماضي هو السند الذي تستريح الدشرة إليه، عندما يتعبها الوقوف من أجل العيش»! نظر إليّ طويلاً، كمن يودّ أن ينفذ إلى خلايا الشيء، ثم قال: «من يمنع الدشرة أن ترحّل ماضيها معها؟ بإمكانها أن ترحّل ماضيها وأولياءها ودراويشها، وكل الأرواح الخفيّة التي تصرف أمورها»! لم أستسلم لهجماته. رددت عليه: «إذا كانت ترحّل كل ذلك، لماذا ترحل إذن؟ ثم، هل تعتقد أن الموتى والذكريات والطفولة المرتبطة بالمكان، يمكن لصاحبها أن يعيش سعيداً بعيداً عن ذلك المكان»؟

قال ضاحكاً: «حقيقة، ان المدرسة لم تعلمك شيئاً! عندما أسمعك أفضل الدروشة على أفكارك! كل شيء يرحل ويحول،

كل شيء! المكان الذي تتحدث عنه مرتبط بزمان مادّي لا يبقى قائماً، يصبح بعد مروره زماناً نفسياً متضمناً للمكان»!

كان كلامه يضايقني كثيراً. هو مغامر، لا يبحث عن الطريق السويّ المؤدّي إلى تنفيذ أحلامه. وكان يقدّر أختي أكثر منّي. قال لها يوماً أمامي: «أنت النموذج الأمثل للهدم وأخوك النموذج الكامل للصيانة» قلت له: «وأنت ماذا»؟ أجاب بدون تردّد: «أنا العنصر المفجّر. بيتكم هذا لا يمكن أن تجتمع فيه كل هذه النقائض. لا بد من تفجيره»! - «بيتنا أم الدشرة»؟ - «بيتكم وبيوت الدشرة...».

أختي راقها التعبير. قالت مؤيدة: «ينفجر كل شيء. المساكن، الحيوانات، السكّان، العين، الصفصاف، الجامع، الجبل... كل شيء! وتعلو نار حمراء تحمرّ منها الآفاق المحيطة بنا. ويرى لهبها من آلاف الأميال! حتى يعلم الناس في كل مكان أنه وقع هنا انفجار ضخم لم تعرفه الدنيا! ما أجمل أن ترى العين ذلك»! قلت لها: «ستكونين أنت أولى أجزاء تلك النار»!

لم تخجل مني ولم تتردّد، قالت: «ولِمَ لا؟»

لاحظت الانفعال يكسو كامل وجهها وهي تتحدّث.كان العنف متجسّماً في كل كلمة من كلماتها! وكانت نظراتها ترسل شرراً غريباً وجميلاً في الوقت نفسه! الأحمر كان ينظر إليها وهي تتحدّث بكل ذرّات وجوده! كان يبدو كالحالم، كالسكران، كالمصمّم على القيام بشيء! كان غريباً! كنت أرى نظراته

ملتصقة بشفتي حجيلة وهي تتحدّث. لم يرقني ذلك بتاتاً. خجلت من نفسي: «لماذا لا أقتله وأقتل حجيلة وأقتل الجازية وأقتل كل اللواتي يبدين شغفهن به، ويبدي ارتياحه لهن؟ أقتل كل هذه الأحلام الغاوية التي تحوم في رؤوسهم. أقتلهم وأريح الدشرة وأريح الرعاة، وأكون بذلك رمزاً أبدياً لشرف المداشر! سأصير أسطورة للشهامة. ستتحدث عني أجيال بعد أخرى في الدشرة حديثاً عطراً يملأ سهراتها! لماذا أقدس ما لا أعرف، وأدع تقديس ما أعرف؟ لماذا لا أكون الماضي الذي يزعزع أحلام الغاوين والفاجرين»؟

لكن الكلمات كانت لا تحدث في نفسي ردّ فعل. كانت جافّة، لا أصداء لها. ربما لأني عندئذ لم أصل إلى مستوى إدراك الخيط الذي يربط بينها وبين الأحداث والمشاهد. لم أكن مؤمناً بشيء. تلك كانت مصيبتي! لم أكن من أهل الماضي ولا من أهل المستقبل. كنت الصفر الذي تلتقي فيه الأزمنة!

عبّر الأحمر عن هذا الموقف بكلمة بليغة جداً، قال: «أنت تفكر في المستقبل وتمشي إلى الماضي»! نفس ما قاله «الشاعر» منذ حين، عن «المشي إلى الوراء»...

ـ لماذا تُقطف الزهور من حقولها وحدائقها لتوضع في آنية؟

كأن سكوتي لم يرقه! حاولت عبثاً أن أربط بين هذا السؤال وبين ما كان يجري في نفسه... أجبته على طريقته:

ـ لتسهل مراقبتها!

ـ صحيح، لو كانت قوّية لرفضت أن تقطف وأن تراقب! الضعيف يدفع ثمن ضعفه»!

لم أضف شيئاً إلى ما قال. كنت أتوقّع منه بعض الإضافات الغريبة. لم يخيّب ظنّي.

أشار إلى الألفات المنقوشة على الحائط وقال:

ـ هذا الذي كان يعدّ أيامه هنا غبيّ!

ـ لماذا؟

ـ في السجن لا تعدّ الأيام، تعدّ الغلطات.

ـ ربما...

تركته يتحدّث وحده بعد ذلك. لم أكن أشعر بالحاجة إلى الكلام. تحدّث عن أشياء كثيرة تدور حول قوة الضعفاء التي لا يحسنون استعمالها... لكن عندما رآني لا أشاركه في حديثه لا بالتأييد ولا بالمعارضة، انكمش في زاوية الحجرة وراح يدخّن... ذكّرني انكماشه وتدخينه في صافية، صبيحة الزردة الرهيبة... هي أيضاً كانت منكمشة وهي في قميص النوم. دخانها يعلو في خطّ متكسر. وجهها شاحب حزين. سألتها عن حالها، أجابت أمي مكانها بأنها لم تنم كامل الليل. وأضافت حجيلة تقول بأنها متحيّرة مما وقع البارحة....

بدت لي عندئذ صافية كما لو أنها تعشق الأحمر! ربما كان إحساسي كذلك لأني أنا أخذت أميل إلى صافية وأرتاح لأحاديثها العذاب... كانت رزينة، ذكيّة، لا تنتقد الآخرين، في الواقع

منذ أن دخلت بيتنا أشاعت في نفسي أملاً في حياة أخرى غير التي عرفتها، وغير التي تخيلتها لو تزوجت بالجازية. . . حياة هادئة، منطقية، منظمة، ليس فيها ما يخيف. على النقيض مما تريده حجيلة ويريده الأحمر وربما ما تريده أيضاً الجازية! صافية كانت هادئة منطقية بالرغم من الصورة الزائفة التي ارتسمت عنها في أذهان الدشرة. كان إحساسي نحوها يتضخم بصورة لا إرادية، إلى درجة أن صار حضورها في نفسي يلغي كلية أحياناً حضور الجازية. وبقدر ما كان يسخطني الأحمر في انشغاله بحجيلة والجازية بقدر ما كنت أغتبط من عدم اهتمامه الكبير بصافية. . . .

سألت صافية: «لماذا لم يعد الأحمر إلى الآن؟ أين ذهب»؟

سؤالها كان يجسّم حيرتها بشكل بيِّن. «أين ذهب»؟ لم استطيع إجابتها بوضوح أمام أمّي. قلت لها: لا يلبث أن يعود. قد يكون ذهب مع الطلبة الآخرين. لكن أختي قالت لها وهي تنظر إلكي كأنها تتحدّاني: «ربما يكون في دار العجوز عائشة! لاني رأيته البارحة أثناء العاصفة حاملاً على ظهره العجوز عائشة»!

قامت صافية في حركة مستعجلة وهي تقول: «ينبغي أن نذهب إلى دار العجوز لنرى ما إذا كان هناك. قد يكون مريضاً»!

أجابتها حجيلة باستخفاف: «مريضاً؟ ولماذا يمرض؟ الذي يرقص ذلك الرقص لا يمرض»!

خرجت إلى المراح لتتمكن صافية من لبس ثيابها. كنت أتساءل: «لماذا كل الفتيات يتعلّقن بالأحمر؟ ماذا يملك أكثر من الآخرين»؟

لكني الآن أعرف... يملك الجرأة! كان جريئاً. الجرأة هي التي تبني الرجال الفاعلين!

وقفت صافية أمامي في سروالها الأزرق الطويل ترجوني في صيغة تساؤل: «أتذهب معي إلى دار هذه العجوز؟ أخشى أن لا أجدها وحدي. كل دور الدشرة متشابهة»!

أفهمتها أن الوقت جدّ مبكر، وأن الأفضل أن ننتظر حتى يطلع النهار....

طبعاً النهار كان طالعاً... قلت لها ذلك لأؤخر ذهابي معها إلى دار العجوز... لم يكن من السهل عليّ أن أقابل الجازية في مثل تلك الظروف، وبعد كل الذي حصل... كما كنت أخشى أن أجده هناك! إن موقفي كان في غاية الحرج بالنسبة للسكّان ولأبي وحتى بالنسبة للجازية... كل حركة مني قد تفسّر تفسيراً يتناقض مع ما كنت أريد!

قالت: «لا بد أن نذهب. قد يكون مريضاً من جراء ما لعق البارحة من مناجل...».

نحن كذلك وإذا بأبي يدخل، مطرقاً برأسه. كان يبدو عليه في تلك اللحظات أنه يحمل كلّ هموم الدنيا! لقد بدا لي أنه تقدّم في السن إلى الشيخوخة بعشرين سنةطفرة واحدة. بدأناه

بالتحيّة فردّ بصوت مختنق. ثم علّق بندقيّته، وجلس على الدكة الحجرّية. أمر حجيلة أن تعطيه قهوة بالشيح. سمعت أمي ذكر الشيح فخرجت مستغربة طلبه: «الشيح في الصباح»! قال لها بحزن ورأسه مطاطىء إلى الأرض: «إننا في المساء! الدشرة مقبلة على ليل طويل»! تساءلنا جميعاً في حيرة، ماذا يريد أن يقول بهذه الألغاز! بادرت أمي تسأله في انزعاج ورعب: «هل قُتل الطالب»؟ ردّت صافية مذعورة متسائلة: «قُتل؟ ولماذا يُقتل؟ ماذا فعل»؟

وسألت أبي بإلحاح: «أين هو الأحمر؟ هل رأيته»؟ أجابها أبي بهدوء: «لم أره يا بنيّتي. لا أدري عنه شيئاً»!

عاد إلينا الاطمئنان بعدما وضعنا سؤال أمي المباغت في هاوية من الذعر! كأنها كانت هي أيضاً تنتظر أن يقع شيء للأحمر!

سألت أبي من جديد: «ماذا وقع إذن؟ لماذ صبّحتنا بهذا الحديث الشين»؟ لم يجبها حالاً. واصل إطراقه إلى الأرض. وإذا بحجيلة تقول بدهشة بالغة: «انظروا انظروا! لم تبق فيه ورقة واحدة»!

رفعنا أبصارنا إلى حيث تشير... لم يبق من الصفصاف إلا جذعه! ذهبت أوراقه وأغصانه الرقيقة وزالت عنه حتى قشوره!

قال أبي معلّقاً على اندهاشنا: «لم يبق شيء في الدشرة... حتى التراب جرفه السيل. جهود سنوات ذهبت بها ساعة غضب»!

ناولته أمي القهوة متسائلة في حيرة: «غضب من يا رجل»؟. ردّ عليها بتنهّد: «ومن تريدين أن يصل غضبه على المخلوقات إلى هذا الحدّ غير الخالق، يا ابنة الناس»!

تكلّمت صافية بحيرة بالغة: «لعلّ السيل أودي بحياة الأحمر؟ ينبغي أن نبحث عنه»! أجابها أبي باشفاق: «أين نبحث عنه إذا أخذه السيل؟ أتدرين أن كل قطرة تنزل على الأرض تأخذها الهاوية! إن معظم البيوت تهدّمت وجرّها السيل، من عاصفة البارحة»!

خرجت وتبعتني صافية... دور تهدّمت عن آخرها. تركت الرصيف الحجريّ الذي بنيت فوقه عارياً. بيوت أخرى لم يبق فيها واقفاً سوى الجدران، أخذت منها العاصفة سقوفها. الخضرة زالت عن البساتين والتراب وأصبحت مشاهد قمريّة! أصيبت الدشرة بكارثة حقيقية!

تحت الإلحاح المتواصل لصافية، اتّجهنا إلى دار العجوز عائشة. لم نجد هناك أحداً، لا الأحمر ولا العجوز ولا الجازية! عدنا إلى ساحة الجامع. كان معظم السكّان هناك، لكن لا أثر للأحمر. عندما رآنا الإمام قام مغضباً وخاطب صافية: «عودي يا امرأة إلى البيت، حتى يأتي الشامبيط. ليس لك مكان بين الرجال. أما يكفيكم ما جلبتموه لنا من كوارث؟ لقد غضب الله علينا وغضب أولياء المقام! عودي إلى البيت. لن نراك بعد اليوم هنا، في هذا المكان، وإلاّ حلّت بنا كارثة أخرى لا تبقي ولا تذر»!

تهيّأت للردّ عليه، فأشرت إليها أن لا تفعل. ليس المقام مقام جدال وحجاج. إن عقول السكان أصبحت مسدودة...

كانت صافية جدّ ذكية. أدارت نظرها في الحاضرين بأسى وولّت وجهها نحو الطريق!

لما عدنا إلى البيت وجدنا الأحمر جالساً على الدكّة الحجرية. كان ملطخاً بالتراب. كدنا لا نعرفه لأول وهلة. أسرعت صافية إليه مستفسرة بقوة: «مالك؟ أين كنت؟ ظننّا السيل أخذك»! ردّ عليها بهدوء وحزن: «هوّني عليك... السيل يعرف أصحابه»!

بعد حديث متقطّع، شاركت فيه مجاملة لصافية علمنا أنه قضى الليل كلّه في إسعاف بعض القرويين الذين تهدّمت بيوتهم، أو جرّ السيل حيواناتهم. وأن ما عاشه من مآسٍ أثّر فيه إلى درجة قصوى. وذكر أن بعض القرويين الذين أعانهم قالوا له صراحة إن ما حلّ بهم كان بسببه!...

عاد إلى نفسي بعض هدوئها، بعدما سمعت أحاديثه عن القرويين. لم أدر حينئذ لماذا؟ الآن أعرف... لم يتحدّث عن الجازية ولا ذكرها كلّيّة. كانت المأساة عنده أكبر من الحبّ!

لكن ذلك الهدوء لم يدم طويلاً. قطعته صافية فجأة، عندما قالت لي: «أليس عندك قميص وسروال؟ إنه لا يستطيع أن يبقى في هذه الملابس الملطّخة بالطين»!

أحسست كما لو أن حفنة من حزن ألقيت في نفسي بغتة فقبضتها وأظلمتها! إنها تحبّه. تفكر فيه أكثر مما يفكر هو في نفسه!

اشتغال الفتيات به ضخّم شعوري بالنقص، وضخّم كراهيتي له. لكني كبحت كلّ ذلك وكتمته. افتعلت عدم اللامبالاة وعدم الاكتراث. دخلت إلى البيت وجئته بقميص وسروال.

خرج أبي في اللحظة التي كنت أناوله فيها الثياب. لم يرقه ذلك بدون شك. كانت نظراته إليّ مليئة بالإشفاق والمقت معاً. لكنه لم يقل شيئاً. ذهب في اتجاه البساتين والفأس على كتفه.

لم يفت الأحمر استنكار أبي عليّ إعطاءه الثياب. قال بحزن: «لا يمكن وضع أيّ شيء في رؤوس هؤلاء القرويين. إنها مملوءة بالمعتقدات السخيفة...».

أدركت حجيلة حدساً أن الأحمر عاد. تريّثت بعد خروج أبي فترة من الوقت، ثم جاءت بإبريق من القهوة. حيّاها الأحمر بابتسام. لم يكن قد بدّل ثيابه بعد. قالت له باندهاش: «مالك، الأحمر؟ هل؟»...

ردّ عليها قبل أن تتمّ سؤالها: «لا شيء. تهت أثناء العاصفة في مكان موحل. المهم أنكما أنت وأمك استطعتما العودة سالمتين إلى البيت».

سألته بدون التواء: «والجازية أين تركتها»؟

ابتسم. لم يجبها حالاً. أعطى لنفسه مهلة للتفكير ثم قال: «الجازية والعجوز رفضتا أن أصاحبهما إلى البيت. كأنهما خشيتا أن ينهدم عندما يراني»!

انشرح وجه حجيلة وانبسط! كأنها كانت هي أيضاً متحسّرة من مرافقته الليلة السابقة للمرأتين. ثم سألته إذا كان يريد فنجاناً من الزيت قبل تناول القهوة، للتخفيف من حدّة الحروق التي أحدثها لعق المناجل.

أثارتني تدخّلاتها وعدم أكتراثها بوجودي: «مالك أنت وكل هذا؟ ادخلي! . . .» قال لها الأحمر مبتسماً: «ادخلي إلى البيت. أطيعي الرجل أيتها الفتاة»!

نبّهته إلى أنه قد تجاوز حدّه. لكنه أفشلني في الحين بردّه: «يقيناً إن ثقافتك لم تفدك شيئاً! أعيش بينكم وتعتبرني أجنبياً»!

تدخلت صافية ناصحة له: «اشرب قهوتك وبدّل ثيابك لنلتحق بالطلبة الآخرين» قال لها وهو يرتشف قهوته: «التطوّع انتهى بالنسبة إلى هذه السنة. . . القرويّون متّفقون على أنه لم يبق لنا هنا ما نعمله. . . . على كل أنا لن أعود إلى المدينة معكم. ألبث هنا أياماً أخرى. أعمالي لم تنته. . .».

لم تنته أعماله؟ أي أعمال؟ ماذا يريد هنا؟ أسئلة تواردت على ذهني لدى سماعه، لم أجد لها جواباً.

قالت له صافية: «عند من تقيم؟ أهل هذه الدار كالآخرين، لا يقبلونك»

أرادت حجيلة أن تقول شيئاً فأشرت إليها بالصمت. امتثلت. ليس لها ما تقوله. أبي لن يقبل بقاءه. إن ما وقع بالزردة أنهى كل شيء!

أثناء الحديث عن القرويين عاد إلى ذهني موضوع الجازية

والعجوز عائشة... ترى لماذا رفضتا أن يذهب معهما إلى البيت؟ هل رأتا أن ما وقع بالزردة تجاوز الحدود، وأن عليهما أن تأخذا الأمور بحكمة؟ لأن الدشرة لا تقبل الاستفزاز المتواصل... العجوز عائشة ليست ساذجة. هي تعرف أن قيمة الجازية في تمجيد السكان لها، فإذا زال ذلك التمجيد تصبح كأيّ فتاة أخرى لا يأبه لها حتى الرعاة!

ذهبت صافية والأحمر للاتصال بالطلبة الآخرين. أنا قرّرت أن أبقى بالبيت حتى يعود أبي، لنتفاهم نهائياً في قضية الأحمر. فكّرت أن أخبره أولاً بأن لا غرض لي في الجازية، بعد الذي حصل. وأنني حتى من قبل رقصها بالزردة ومجيء الطلبة لم أكن راغباً في خطبتها. ثم أعرض عليه فكرة بقاء الأحمر بيننا، إذا أراد. لأن طرده لا يليق بسمعتنا.

في الواقع منذ سمعت صافية والأحمر يتحدّثان عن موضوع مغادرة الطلبة للدشرة اتخذت الأمور في نفسي مجرى آخر... فكرت أن كل ما وقع أمر عابر. ليس فيه ما يمسّ بمقوّمات حياتنا القرويّة. الأحمر كان مقيماً في دارنا، ورقصه مع الجازية، حتى لو كانت خطيبتي، مبرّر بالإقامة بيننا... ثم إنه طالب، من المدينة، رفض مجاراة لتقاليد القرية، لا حباً في الرقص، ولا من أجل الجازية... بالنسبة له، رقصه مع الجازية يشبه الرقص مع أي طالبة! الدليل، أنه لم يبق معها، ولم تتعلق هي به...

بهذه الأفكار قضيت جزءاً هاماً من صبيحة ذلك اليوم حتى عاد أبي. فاتحته في الموضوع بطريقة لا تثيره. عرضت عليه

جوانب القضية، محاولاً أن أجعله يتصوّرها كما أتصوّرها أنا. شرحت له أيضاً بعض أنماط الحياة المدنية وأخلاقها، وخاصة منها الحياة الطلابية. تركني أتحدّث وحدي. كنّا جالسين على الدكّة الحجرية. عندما سكتّ قال: «أتممت حديثك؟» أجبته بنعم. قال: «إذا رغبت في أن يبقى معنا هذا المجنون، فأنا لا أخذلك. كنت أودّ أن تفهم أنك قبل كل شيء، قرويّ. حسبت أنك ستحدّثني عن الطريقة التي نقتله بها!... لو سألتني عن ذلك لدللتك على طريقة جدّ سهلة، لا تكلف ثمناً! لكنّك فكرت بطريقتك. عليك أن تتحمّل مسؤولياتك وحدك. الدشرة لا تسمح له ولا لك بما وقع. هو فعل، وأنت قبلت! الأولياء أنفسهم سخطوا! إنه رجل خان ملحنا! هذا ما أقوله لك».

لأوّل مرة أحسست أن صوت أبي يصل إليّ من وراء قرون بعيدة!

ان المدرسة صقلت فعلاً الزوايا الحادّة من أخلاقي القروية. ان ما ينتظرني، إن بقيت في الدشرة، السقوط، على حدّ تعبير أبي...

أقبلت حجيلة تحمل في يدها فنجاناً من القهوة، وقالت لي: «سمعت ما قال لك أبي. لا تهتمّ كثيراً بحديثه. هو يريد منّا، أن تعيد أنت حياته، وأعيد أنا حياة أمي! أنا أحيا حياتي ولو كانت سوداء! ماذا يستطيع أنّ يفعل؟ يقتلني؟ أفضّل ذلك على حياة لا أريدها!».

ماذا؟ حجيلة البنت القروية تتحدث هذا الحديث؟!

بكلمات صغيرة بعثت في نفسي قوةً عاتية! حجيلة، أختي القروية التي لم تر في حياتها سوى الصفصاف والعين والطريق المنحدر إلى السهل...

إذن، عليّ أن أرتّب أموري. أعود مرة أخرى إلى الجازية. أقول لها: ما قالته لك قارئة الكفّ إن هو إلا أوهامٍ. أريدك زوجة. نغادر الجبل. نسكن قرية جديدة نبنيها معاً بمساعدة ملايين الشبان الذين يفكّرون مثلنا. الأحمر إذا أراد الزواج من حجيلة أوافق. أساعده على تحقيق أحلامه. حجيلة تقبله زوجاً. كل حركاتها تتحدث عن حبّها له!

لكن إذا رفضت الجازية الزواج مني، أتحدّث إلى صافية، أخطبها! إنني كلما فكرت فيها شعرت براحة تسري في أجزاء روحي. أحياناً هي أيضاً تميل إليّ. لاحظت ذلك في نظراتها، عندما يعلوها إشعاع!

إنه برنامج عظيم لو تحقّق! أذهب الآن إلى الجازية... هي النقطة الأولى في هذا الطريق المضيء!

الزمن الثاني:

- 6 -

ـ مجنونة!

ـ من هي المجنونة؟

ـ الجازية!

ـ رأيتها؟

ـ رأيتها.

ـ كيف قبلت مقابلتك؟

ـ رفضت في البداية. ثم لما رأتني مصمّماً، لم أتزحزح عن مكاني كامل العشية، قبلت!

ـ قضيت كامل العشية أمام الباب؟

ـ قرّرت أن أراها مهما كان الحال. قبلت. لكنها مجنونة! لم تكشف لي عن وجهها ـ وضعت عليه لثاماً كثيفاً، وتركت ثقبة واحدة ترى من خلالها الأشياء. بدت لي وهي جالسة ملثّمة بلثامها الأبيض، بتلك الكوّة المفتوحة في جانب من وجهها كقبّة وليّ! لست أدري لماذا حجبت عنّي وجهها؟ قالت لي ونحن نتحدث عن الزواج، إنها تشترط فيمن يتزوجها أن لا يشرب إلا

الدم! مجنونه... المجانين وحدهم الذين يحبّون الدماء! منذ اليوم لن أفكر فيها. تحدّث الناس عنها حتى صارت أسطورة! بينما هي مجنونة!

ضحكت حجيلة ضحكاً عالياً من كلام عايد! إن الجازية سخرت منه، لم تُره حتى وجهها، أو أنه لم يرها أصلاً، لا ملثّمة ولا دون لثام! قالت له تمازحه:

- الجازية لا تتحدّث كسائر الناس!

- والتي لا تتحدث كسائر الناس من يفهمها؟ لا لا. إنها مجنونة، أقول لك... قالت إن خطّابها تحيق بهم الكوارث قبل أن يتربّع حلم الزواج في رؤوسهم! «يتربّع حلم الزواج!... تحيق بهم الكوارث»... هذا هو بالضبط كلام المجانين!

ردّت عليه حجيلة بتنهّد، كمن تذكّر شيئاً يؤلمه:

- صحيح ما قالته لك. خطبها أبي للطيّب، ها هو الآن في السجن! رقص معها طالب متطوّع، في الزردة، قُتل...

عاد إلى عايد بعض هدوئه، بعد نوبة الغضب التي كان فيها، وقال لحجيلة:

- لا، لا. الحقيقة أبسط من ذلك. السكان يضخّمون الأشياء ويميلون إلى اختلاق الأساطير... ألم يقولوا إن أباها قُتل بألف بندقية؟

- صحيح، قُتل بألف بندقية!

- من قال لك؟ هل رأيته بنفسك؟

ـ الناس الذين يعرفونه كلّهم أكّدوا ذلك. . . أبي أيضاً!

ـ الناس يقولون ما يلائم خيالهم، ذلك كل ما في الأمر!

ـ إذن أنت لا تصدّق بأن أبا الجازية قُتل بألف بندقية؟

ـ لا أصدّق. منذ وجودي بهذه الدشرة وأنا أحيا في الأساطير والخرافات، كأنني في عالم آخر!

حجيلة لا تخضع ولا تغلب. لا بد أن تجد وسيلة لإقناعه. لذلك قررت أن تنادي أمّها لعلّها تساعدها، أو تجد من التفسيرات ما لا تعرفه هي. كانت أمّها هادية بالحجرة العائلية. نادتها.

ـ أمي! أمي! تعالي دقيقة!

أجابتها أنها لا تستطيع، لأن العجين في القصعة. . . ألحّت عليها أن تأتي.

ـ ماذا تريدان مني؟ ألا تريان يديّ في العجين؟

ـ أبو الجازية، ألم تقتله ألف بندقية؟

ـ نعم، قتل بألف بندقية! كانت فرائص الاعداء تضطرب لذكره. رحمه الله!

تكلم عايد معبّراً عن عدم استساغته مثل هذا التفكير، مؤكداً مرة أخرى أنها أسطورة من الأساطير، لا أكثر:

ـ لماذا يقتل بألف بندقية؟ ألا تكفي بندقية واحدة لقتله؟

ـ طوّقته فرقة عسكريّة كاملة. لم يكونوا يظنّون أنه وحده

لشـدّة مقاومتـه! أطلقوا عليـه النار من كـلّ جهة. . . كـانوا ألف عسكري!

تفسير العجوز الأمّ أقنع عايداً إلى حدّ ما. . . لكنه مـع ذلك لم يستسلم:

ـ قد يصحّ ذلك. لكن، كيف دفن في حناجر الطيـور؟ أليس ذلك تهويلاً في الكلام من السكان؟

أجابته هادية بتأكيد وحدّة تكفي إقناعاً:

ـ ذلـك أيضاً صحيـح. أنت لا تعرف أسلوب النـاس هنا في الكلام. . . عندما قُتل، حرم الأعداء دفنه على النـاس، فأكلتـه الـطيور! لم يـرق الناس أن يقـولوا عن أعـظم رجـل إنـه أكلتـه الطيور. . . قالوا دفن في حناجر الطيور!

ـ إنه كلام عجيب! عجيب وجميل في الوقت نفسه!

قالت له هادية بابتسام:

ـ أنت يا ولدي من المدينة، لـديك مـا يشغلك فيها. . . أمـا نحن هنا فشغلنا هو نسج الزرابي ونسج الكلمات! أدعكما الآن، أعود لعجيني، إن لم أجده خسر!

خاطبت حجيلة بعدما انصرفت أمها:

ـ أرأيت؟ الناس لا ينطقون عن الهوى هنا!

ـ مهما كان الأمر، فأنا أعتقد أن الجازية تحجب وجههـا لعيب فيه! الفتاة الجميلة لا تخفي محاسنها!

ـ ذلك في بلدان أخرى ربما. . . عندنا، الفتاة تخفي حسنها كما تخفي قبحها. أما اللثام فهو من تقاليد القرية.

ـ تقاليد القرية. . . المرأة تترك نافذة في وجهها! لتضيء بها ماذا؟

ـ لترى الأشياء دون مضايقة من أحد.

ـ وأنت لماذا لا تخفين حسنك؟

احمرّ وجه حجيلة خجلاً! لم ينتبه عايد إلى الكلمة، إلا بعد أن لاحظ احمرار وجه حجيلة! فكر أن لا يتراجع. الكلمة قالها، فليقلها واضحة أكثر، عساها تقرّبه منها أكثر. . . إن الجازية انتهى رجاؤه فيها بعد كل الذي حصل. . .

ـ أنت جميلة، ولم يمنعك جمالك من أن تكوني طبيعية!

لم تجبه، خجلت. إن الكلمات وقعت من نفسها موقعاً حسناً. بل أزالت ما كانت تشعر به من خيبة، عندما حدّثها عن الجازية. . . هي تودّه لها، لا للجازية ولا لغيرها من القرويات! ألم تحاول مرّات أن تستدرجه إلى مثل هذه التصريحات، دون أن تحقّق شيئاً؟ ها هو ذا يتحدّث بنفسه. . . الرجل لا يقول لفتاة: أنت جميلة، بصورة مجرّدة من كل الضمنيّات.

ـ أنا من الآن فصاعداً لا أثق في أحد يقول لي إن الجازية جميلة!

الجازية جميلة ما في ذلك شكّ. ليس لأحد مهما كان أن يستطيع التنقيص منه، إنه جمال إلهيّ، يفوق كل المستويات

البشرية! هذا ما تعتقده حجيلة وكل الفتيات الدشراويات! أما بالنسبة للرجال، فكلمة جمال بالنسبة للجازية لا تؤدي أي حقيقة من حقائقه! لذلك خطر ببال حجيلة أن عايداً لم ير الجازية كلية، لا ملثّمة ولا بغير لثام:

ـ أنت متيقّن أنك ذهبت إلى دار الجازية؟

ـ طبعاً متيقّن!

ـ هل العجوز عائشة كانت هناك؟

ـ لا، لم تكن هناك. قيل لي إنها ذهبت إلى المقبرة.

ـ من قال لك؟ هل يعقل أن تذهب إلى المقبرة بعد الظهر؟ لا. المقبرة تزورها النساء في الصباح الباكر. ولو ذهبت إلى المقبرة لأخذت الجازية معها. ثم إن العجوز عائشة لا تحبّ زيارة المقابر... من الذي دلّك على دارها؟ أنت لا تعرفها.

ـ أحد الرعاة.

ضحكت حجيلة حتى كادت تسقط عليه..

ـ مالك تضحكين؟

ـ أنت لم تكن في دار الجازية. كنت في دار أحد الرعاة تنكّر لك في لباس امرأة!

ـ لا، لا، غير معقول! لا يمكن لاحد أن يسخر مني أنا!...

فعلاً، كان في بيت أحد الرعاة. سمعوا عنه منذ أن جاء إلى الدشرة، أنه لا ينفك يذكر الجازية. نصبوا له شركاً بالاتفاق مع راعي السبعة، ليصبح محل ازدراء من طرف الدشراويين! لم ير

الجازية ولم يدخل بيتها. . .

لكنه مع ذلـك لم يثق بكلام حجيلة. ظن أنها تمـزح معه، أو أنها تفعل ذلك لسبب آخر!

لما رأته لم يصدق قولها، نادت أمها من جديد:

ـ أمّي! تعالي!

أقبلت الأم وقد انتهت من عجينها:

ـ ماذا أيضاً؟

ـ هـل العجوز عـائشة بنت سيـدي منصور تـذهب إلى المقبرة بعد الظهر وتترك الجازية بالبيت؟

ـ العجـوز عائشـة لا تحبّ زيارة المقـابر. . . وحتى لـو فعلت ذلك لما تركت الجازية وحدها. لماذا تسألين هذا السؤال؟

أخـبرتها حجيلة بـالقضيـة من بـدايتهـا إلى نهايتهـا فضحكت هادية ضحكاً ممزوجاً بالأسف على ما تعرّض إليه عايد:

ـ إنهم خبثاء يا ولدي، هؤلاء الرعاة. . . لا ينجو من خبثهم أحد! لكن لماذا ذهبت إلى دار الجازية؟ إن ذلك غير لائق!

تذرّع عايـد بأنـه من باب الفضـول فعل ذلـك. . . إذ طالمـا سمع وهو في المهجر، عن ما أشيع حولها من أساطـير، فأراد أن يتعرّف على شخصها. . .

أعادت هادية نصحها له بأن يبتعد عنها. قالت له إن النـاس يسيئـون النية بغـيرهم ويسمحون لأنفسهم بمـا لا يسمحـون بـه

للآخرين. . . بينما هو كان يفكر أن لو استطاع أن يتعرف على الذين سخروا منه لانتقم منه شرّ انتقام. . . حزّ في نفسه أن يسخر منه الرعاة هو، رجل المدينة، المثقّف الذي يحيا حياة متقدّمة عن حياتهم بأكثر من قرن! سخروا منه بكل وقاحة!

قام متّجهاً نحو الباب، استبقته حجيلة وأمها، ليتناول قهوة. ردّ عليهما أنه يحس بالحاجة إلى المشي، ليبدل أفكاره. . . قالت له:

- اشرب قهوة أولاً: ثم اخرج إن شئت. لا تفكر كثيراً فيما وقع. . . .

لاحظت حجيلة أن الجازية هذه هبلت الناس:

- لو كنت رجلاً لما فكرت فيها ولا في البقاء في هذه الدشرة. . . الحياة واسعة!

لم يعجب الأم تعليق ابنتها. أولاً، ليس لها أن تقول ما قالته أمام رجل. ثانياً إبداء استعدادها لمغادرة الدشرة لا يشرّفها ولا يشرّف الدشرة:

- كلام الشامبيط أخذ يؤثّر على نفسك حتى أنت!
- ولماذا يؤثّر عليّ كلام الشامبيط؟ أنا لا يهمني!
- من يقبل مغادرة الدشرة، يقبل كل شيء. . . لو سمعك أبوك!. . .

تساءل عايد: لماذا يرضى السكان بضغوط هذا الشامبيط وهم

قادرون على عدم السماح له حتى بالدخول إلى الدشرة؟

ـ أنا لم أفهم سكان هذه الدشرة! . . . ومن جهة لا يحبّون الشامبيط، ومن جهة أخرى يرحبّون به، ويتملّقونه!

قالت الأم:

ـ لأنهم يخافونه يا بنيّ!

ـ لماذا يخافونه؟ يستطيعون أن يطلبوا تبديله.

ـ ممن يطلبون تبديله؟

ـ من الحكومة.

ضحكت هادية بأسى:

ـ هو الحكومة! من يطلب من الحكومة أن تبدل نفسها؟ إن أنصاره في كل مكان!

ـ أنتم تتوهّمون ذلك. . .

ـ لا نتوهّم يا بنيّ! تلك هي الحقيقة! إنه يريد أن يزوّج ابنه بالجازية بالرغم من رفضها وعدم موافقة السكّان على ذلك، ويريد ترحيل السكان للقرية التي هم بصدد بنائها. . .

لاحظ عايد أن السكنى بالقرية الجديدة أفضل من هذه «الغيران». هناك يسهل الأخذ بأسباب الحياة الجديدة المتطّورة. الأطفال يقرأون، والمرضى يعالجون، والمغتربون يعودون بالأقل لزيارة ذويهم كل سنة. أفهمها أن الذهاب من القرية الجديدة إلى أقصى نقطة في الدنيا أسهل من الصعود من سفح الجبل إلى هذه الدشرة!

ردّت حجيلة أنها تفضّل الرحيل إلى أيّ جهة كانت في الدنيا، لكن لا إلى القرية التي «يبنيها» الشامبيط! أما هادية فأكدت له:

ـ الشامبيط نخافه، ولكن لا نطيعه في الرحيل. . . العروق هنا! الإنسان كالشجرة تربطها بالأرض عروق، إذا اجتُثّت من عروقها ماتت!

لاحظ لها عايد أنه يمكن «نقل» الشجرة من تربة إلى أخرى أصلح! أما حجيلة فعلّقت في شيء من الرفض:

ـ إذا بقينا في هذه الدشرة نبقى عروقاً تحت الأرض، لا نرى النور أبداً! أنا أفضل الجحيم على البقاء هنا!

ـ الناس يزدادون تعقّلاً وأنت تزدادين طيشاً. . . . هيّا قومي أعدّي القهوة لسي عايد!

لم تأبه بكلام أمها، ردّت عليها مازحة:

ـ «سي» عايد يحبّ قهوتك أنت! أليس كذلك يا «سي» عايد؟

افتعلت هادية الغضب على ابنتها، لكنها لم تردّ عليها إلا بنظرات استنكار ونهي. وذهبت لتعدّ القهوة رغم معارضة عايد. . .

في الواقع كلهم كانوا متّفقين على أن القهوة ينبغي أن تعدّها هادية! هي تريد إعدادها لتتيح الفرصة إلى ابنتها وعايد أن يبقيا معاً، هناك بالمراح تحت مراقبتها. كانت تحسّ «بحاسة الأنوثة»

فيها أن شيئاً ما سوف يحدث بين عـايد وحجيلة. . . وهي تتمنى أن تنتهي بهما تلك «الأخوة» إلى الزواج!

أمـا بشأن الجـازية، فهي ككـل السكان «سمعـوا» بأن هـذا المهـاجر أيضـاً (!) جاء من أجـل الجـازيـة. . . لكنهـا لم تصرح بذلك، لأحد، لا لحجيلة ولا لزوجها ولا حتى لعايد. . . كانت عـلى يقين بـأن الجازيـة لن تتزوّج بـأجنبي مهما كـان الحـال. لا الدشرة تقبل، ولا هي، ولا مربّيتها ولا حتى الرعاة!

ومحـاولة عـايد في ذلـك اليوم لم تخـرج في نـظرهـا عن كـونها فضولاً من الفضول. . . كما أخبرها هو نفسه!

حجيلة فعلاً تليق به ويليق بها! لو لم يكن يـرغب فيها لغـادر الدشرة منذ أيام. ها هو ذا لا يذكر حتى الذكر مغادرة الـدشرة! لماذا؟ لأنه يمهّد للزواج بتمديد إقامته هكذا. . .

ذهب إلى المدينة مرّتين منذ أن جاء إلى الـدشرة. في كل مـرة منهما عاد محملاً ببغل من الهـدايا والمـآكل اللذيـذة! حجيلة تحب الأشياء اللذيذة.

باختصار، في نظر الأم أن عايداً رجل طيّب، لا تجـد حجيلة زوجاً مثله. ولا سيما أنه يسكن في المدينة!

في حين كانت حجيلة تحـاول، بدورهـا، التقرّب من عـايد. قالت له:

ـ لمـاذا جشّمت نفسك كـل هذا العنـاء لرؤيـة الجازيـة، هل تحبّها؟

التفت إليها مندهشاً! لم يدر بِمَ يجيبها. إنه سؤال لم يتوقّعه منها أبداً! لم تسعفه البديهة بكلمة مقنعة يردّ بها عليها. قال:

- الناس كلّهم يحبّون أن يروها!

- وماذا يهمّك في الناس أنت: إنها كالنار تحرق كل من اقترب منها!

خطر له أن يردّ الهجوم بأشدّ منه:

- أتغارين منها؟

لم تتردّد في الجواب كما كان يتوقع. قالت ضاحكة:

- كل النساء يغرن منها. حديث الرجال عنها أفسد عواطفهم عن نسائهم! أنتم الرجال لا تحبّون، تتنافسون... لو لم يرغب الشامبيط في خطبتها لابنه الذي يقرأ في أمريكا، لما رغب في خطبتها أبي للطيب، ولما أحبّها الأحمر...

- من هذا الأحمر؟
- القتيل... الطالب المتطوّع.
- متطوّع لحبّها!

- ربما! وها أنت ذا أيضاً تتحرّق شوقاً لرؤيتها... ومن يدري؟ قد تقول لنا في أحد الأيام إنك تريد خطبتها، رغم ما بين أبيك وأبي من صداقة وأخوة!

- مهلاً، مهلاً! لا تتسرّعي هكذا... تنفّسي. قولي كلماتك واحدة بعد أخرى! فكرت فيها وأنا بعيد حقيقة... أما بعد كل

ما سمعت وشاهدت فإني لا أفكر فيها التفكير الذي تتصوّرين!

شعر أن حديثه مع حجيلة انتهى إلى ما يشبه عتاباً بين حبيبين! إن لهجتها الجادّة ونظراتها الملتهبة تعبّر بوضوح عن الغيرة. لماذا تغار من الجازية لو لم تكن تحبّه؟

لكنه أراد أن يتأكّد من عواطفها تأكّداً لا يقبل الشك. قال لها بلهجة يمازجها الحزن:

ـ من نحبّه لا نتحدث عنه!

ـ كيف؟ من تحبّه لا تتحدث عنه؟

ـ بالضبط!

نظر إليها فوجد عينيها متعلقتين به، تشعّان إشعاعاً ينفذ إلى أقصى الوجدان. لم يستطع مواجهة نظراتها. قال لها بصوت وضع فيه كل ما استطاع من شوق:

ـ نعم، من نحبّه لا نتحدث عنه، لأنه يحيا في الأعماق!

خفضت بصرها وعلا وجهها احمرار يخون ما يجري في نفسها من لواعج! قال في نفسه، لماذا تخجل مني لو لم تكن تعلّق أملا ما؟ أراد أن يضيف شيئاً يقرّبهما لبعضهما أكثر:

ـ في اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى الدشرة. . .

أقبلت هادية تحمل فنجان القهوة فلم يستطع إتمام جملته. بقيت حجيلة مشرئبّة لمعرفة ما يريد أن يقول. . . لا شكّ أنه يريد إخبارها بشيء مهم، بعد هذا العتاب الذي دار بينهما!

أحسّت ذلك إحساساً كبيراً. حدسها الانثوي يقول لها، إنه يريد إخبارها بشيء يتعلّق بهما! تناول هادية فنجان القهوة إلى عايد وتجلس! لم تجد حجيلة ذريعة تمكّنها من إبعادها. أذعنت للواقع، وراحت تسترق النظر إلى عايد. كان هو أيضاً ينظر إليها الفينة بعد الأخرى، في شيء من الخشية! إن التآمر الصامت بينهما ضيّق الفجوة التي كانت تبعد كليهما عن الآخر. لم يبق سوى خطوة صغيرة يقطعها أحدهما ليجد نفسه مع الآخر! إن حضور الأم بينهما زاد من توثّب عواطفهما نحو بعضهما بعضاً. النظرات لم تعد تكفي لذلك التنادي. أخذت الحركات والملامح تتحاور هي أيضاً.

إن لمس الفنجان لشفتيه نبّه توقهما لقبلة... قبلة واحدة من هذه الفتاة العروب التي يكسوها حسنها كساء رائعاً ويعطي لأنوثتها إغراء رهيباً!

بطريقة لاشعورية أبقى شفتيه مطبقتين على حرف الفنجان. وإذ لاحظت ذلك قامت خجلاً. كما خشيت أن تشعر أمها بالأمر. لم تكن في حاجة إلى مزيد من الإشارات. فهمت كل شيء. ينبغي التفكير في وسيلة للقاء على انفراد والحديث عن هذا المشروع الذي رسمت خطوطه الأولى تلك الأحاسيس العذبة المشتركة التي يحسّها كل منهما نحو الآخر!

لكن عايد فهم قيامها غلطا. ظنّها رفضت منه تلك الحركة! وضع الفنجان جانباً وقام متأهّباً للخروج. سألته هادية إلى أين

يذهب، لتخبر بذلك زوجها إذا سأل عنه، أجابها أنه لا يدري. يريد أن يخرج وكفى.... لم تدر حجيلة ما تفعل. كانت تودّ أن يبقى، لكنها لم تستطع البوح بذلك أمام أمها.

خرج متجهاً نحو بساتين القرية. كان يشعر بالملل. كلما انفتحت نفسه لأمل جاء شيء ليسدّها. لكن حجيلة مهما كان الحال، أصبحت تشغل الجزء الأكبر من تفكيره. إن الصدف جعلتها منذ البداية تقتحم وجدانه. دخلته أولاً في صورة تجسّم الجازية، يوم أن رآها لأوّل مرة وهي مقبلة في جمع من النساء وهالة الحسن تتقدّمها... صحيح، قبل أن يحلّ بالدشرة كانت الجازية تحيا في نفسه بشكل مكثّف. لكنها بقيت في مستوى الفكرة أو الحلم، أما كحقيقة فقد اتخذت شكلاً لها في شخصية حجيلة! لذلك، كان التفريق بين فكرة لم تتحقق مادياً، وحقيقة مادية قائمة، شيئاً محيّراً! أحياناً يتساءل: من يحبّ؟ الجازية التي لم ير حقيقتها المادّية، أم حجيلة الحقيقة المادية القائمة التي لم تستطع أن تمحو نهائياً الجازية ـ الفكرة؟ على أن الأيام التي قضاها بالدشرة خفّفت إلى حد بعيد من حضور الجازية في نفسه. أحاديث الرعاة حولها وحومانهم، مقتل الطالب، سجن الطيّب، الشامبيط وما يشاع عن اعتزامه إرغامها على الزواج من ابنه، كل ذلك يزهّد فيها أشد الناس عزماً! في الواقع لو فكّر بجّد لوجد أن ما بقي من مشروعه السابق هو الرغبة في رؤيتها فقط... يراها ثم من بعد يغيّر مجرى حياته ومجرى آماله!

لكن آماله المتعلقة بحجيلة ما زالت تتعثّر! في كل مرة يحدث

ما يجعله يعيد النظر في تفكيره نحوها... هكذا كان يتصوّر! لم يدر أن حجيلة تبادله عواطفه بأقوى منها... وراح يتساءل: «لماذا قامت عندما رأت شفتيّ مطبقتين على مشرب الفنجان؟ سؤال حيّره، ودفعه في مسلك من مسالك البساتين، تحفّ به الأشواك. هو في طريقه وتفكيره ذاك وإذا بأحد الدراويش يناديه... التفت إلى جهة الصوت فرأى شخصاً ممتدّاً تحت شجرة تين وارفة الظلال. دعاه لقضاء وقت معه وتناول بعض الفواكه. لبّى الدعوة مسروراً. كان حائراً لا يدري ماذا يفعل ولا إلى أين يذهب... إن الحديث مع الدراويش ممتع. حديث ابن ساعته، ينتهي بانتهاء الوقت الذي قيل فيه!

ان الفترة التي قضاها عايد في الدشرة جعلت معظم السكان يعرفونه. كما أنهم نسجوا حول مجيئه من ديار الغربة، وإقامته لدى صديق أبيه ابن الجبايلي، قصصاً لا تخلو من متعة! قال البعض إنه يملك أموالاً طائلة في المهجر، وهو يحيا هناك حياة ناعمة فضفاضة، له «حريم» على غرار أمراء الخيام... ومجيئه إلى هذه الدشرة يندرج في إطار البحث عن «القطع» الثمينة لإثراء «مجموعته النسوية»! وأن سؤاله عن الجازية يدخل في إطار ذلك البحث...

وقال البعض الآخر، سؤاله عن الجازية لا يعدو أن يكون تمويهاً... غايته الحقيقية هي حجيلة، الفتاة العروب التي لا يطمح الرعاة إلى الاقتراب منها... حجيلة بنت الأخضر، رجل البارود «والنيف»! وجعلوا من تلك المصاهرة المؤكدة بداية

لمشروع طويل وعريض يشمل فيما يشمل الاستيلاء على أموال الجازية الموجودة خارج الحدود. . . إذ يشاع منذ مدة أن للجازية ثروات هائلة في أمكنة أخرى لا تعرف عنها شيئاً هي نفسها. . . .

وقالوا أشياء أخرى. . .

طبعاً، عايد لا يعلم شيئاً عن كل تلك الإشاعات. هو جاء من أجل الجازية فالتقى بحجيلة. . . هذه هي قصّته مختصرة ومطوّلة!

ناوله الدرويش حبّات من باكور التين في غاية الجودة. قال له يرغّبه:

ـ إنك في هذه الحبّات لا تأكل التين وإنما الأشعّة وماء الجبل المصفّى!

كانت حبات بيضاء، قشورها تفزّرت من النضج، كأنها قطع قُدّت من خبز العسل الأبيض!

قال عايد وقد التهم الحبة الأولى:

ـ فعلاً، إنها سقيت بماء الكوثر! في المدينة لا وجود لهذا النوع.

ـ في المدينة كل شيء مصبّر، حتى العباد!

ـ هل تعرف المدينة؟

ـ ذهبت مرة إليها. أقمنا «حضرة» لامرأة ثريّة تريد أن تلد في

السّتين!

ضحك عايد من خفّة روح الدرويش وسأله مازحاً:

- وهل ولدت؟

- خسرت أموالها عند الأطباء، ولما يئست من الحمل فكرت في الدراويش! ماذا يستطيع الدراويش لامرأة في الستين؟ نحن لا نرمّم، نبني من الأساس!

أعجب عايد بكلام هذا الدرويش المرح الحكيم... أضاف الدرويش:

- نحن نبني من الأساس، والذي يريد مساعدتنا يبكّر، لا يتأخر. ويسلّم أمره إلينا، مكتّف اليدين والرجلين! عندئذ ينال ما يتمنّى. أما الذي يريد أن يدخل إلينا من النافذة والباب مفتوح، فإننا نرمي به في الهاوية!

كلمة الهاوية ذكّرت عايد بمقتل الطالب... قال له:

- مثل ذلك الطالب المتطّوع!

استوى الدرويش جالساً، وراح ينظر إلى عايد بفضول وتساؤل:

- هل تعرفه؟

- لا أعرفه، لكني سمعت قصّته.

- لو لم يستعجل مستقبله لصار درويشاً ممتازاً! خسر نفسه وخسره الدراويش! ماذا نستطيع أن نفعل له نحن؟! لم يحالفنا

ولم يستشرنـا! الناس تعذّبوا وسجنـوا، حلمـوا السنـين الـطويلة ليحصلوا عـلى نظرة واحـدة من الجازيـة ولم يستطيعـوا! وهـو في لحظة أراد أن «يولـدها» أمـام كل النـاس! لا، كان غـالطاً. . . لعق منجلا، ورقص رقصة ظنّ أنه وصل! الدروشة لا تحصـل في ليلة، والجـازيـة لا تنـال بضمّـة! لا، لا. كـان غـالـطاً، أقـول لك. . . أغضب الإنس والجنّ، حتى السماء أغضبها! كانت ليلة رهيبة لم تعرفها الدشرة في تاريخها! لولا لطف الأولياء لما بقيت في تلك الليلة حتى الحجارة! ولجرّ السيل إلى الهاوية حتى المقابر!

سكت برهة كمن يستعيد صور هول الكارثة التي عاشهـا، أو يحاول إبعادها من ذاكرته! علت وجهه مسحـة من الحزن، قبـل أن يضيف:

ـ الجازية! أتدري أيّ شيء هي الجازية بالنسبـة للدشرة؟ هي الحلم الذي يبيت كل ليلة في فـراش كل راعٍ وكـل فلاح وكـل درويش! هي العـروق الماضيـة، وهي الثـمار التي ستـولـد! هي حمامة حائمة فوق رأس جبل، من يستطيع قبضها؟

كانت الكلمات تخرج من فمـه ملتهبة، كـما لو أنـه من عشّاق الجازية!

وكأن ما خطر ببال عايد عرفه الدرويش «كشفاً» فقال:

ـ الجــازيـة. . . من ذا لا يحب الجــازيــة؟ لكن الحب شيء والغصب شيء آخر! من يقبل أن يغصب الجازية، وأبـوها قُتـل بألف بندقية؟

ـ لكن ماذا وقع في تلك الليلة الحالكة التي تتحدّث عنها؟

ـ ماذا وقع لمن؟ الدشرة أصبحت كأرجل الحمام!

ـ ماذا تعني؟

ـ أصبحت جرداء، حمراء عريانة!

ـ والجازية؟ والطالب؟ وأصحابه الآخرون، ماذا وقع لهم؟

ـ الجازية أصبحت الجازية، بقصة جديدة وأغاني جديدة غنّتها الدشراويات والرعاة! الطلبة عادوا من حيث أتوا. لكن صاحبهم المدروش بقي. كان يقضي يومه تائهاً في أرجاء الدشرة وشعابها. ينام حيثما اتفق! مرة بالجامع وأخرى بالعين، وأحياناً على الدكة الحجرية لدرا ابن الجبايلي...

ـ لماذا لم يعد مع رفاقه؟

ـ من يدري؟ أجله أبقاه! بقي هائماً. في يده كرّاس وقلم وهو يخطّط ويرسم، وفي الليلة الأخيرة ذهب لدار الجازية... لم يعلم أحد ماذا وقع بينهما! رآه الرعاة في المساء داخلاً، ورأوه في الصباح خارجاً. ورأوه من بعد مع بعض السكّان هو والطيّب بن الأخضر! وفي النهاية وجدوه قتيلاً أسفل عين المضيق!

ـ لكن كيف شهد السكان ضدّ الطيّب بن الأخضر أمام المحكمة على أنه هو القاتل؟ هل رأوه؟

ـ أبوه نفسه لم يعارض شهادة السكان!

ـ هل رآه؟

ـ لماذا تريد أن يراه؟ ألم يكن يعتزم تزويج الجازية بابنه؟

امتعض عايد من جواب الدرويش. هو يبحث عن الحقيقة والدرويش يتحدّث عن الأساطير!

ـ لكن كيف يشهدون ضدّ شخص لم يروه بأعينهم؟ ثم إن قضية الزواج، قيل إن الطيب لم يكن متحمّساً لها، بل تخلّى عنها!

ـ لم يشهدوا ضده، شهدوا أنه القاتل! ألا تستحق الجازية أن يُقتل في سبيلها الرجال، ويسجن الرجال؟

ـ لم أفهم ما تقول!

ـ للدشرة أعراف وأخلاق تحيا عليها وتعمل بمقتضاها. . . .

ـ أخلاقها تقتضي أن تشهد ضدّ شخص دون أن يكون لديها أي إثبات!

ـ لا يمكن أن تفهم بسهولة ما وقع. . . الناس هنا يرون أن سَجْن الطيّب بن الأخضر شرف له وللقرية!

لم يستطع عايد أن يهضم هذا المنطق، فضّل الصمت على مواصلة الحديث في ذلك. لكن الدرويش أضاف بحزن:

ـ ليت الأمر انتهى عند ذلك! ها هو الشامبيط بدوره يستعدّ في هذه الأيام. . . يريد أن يعيد الدنيا إلى الوراء، ويزوّج ابنه بالجازية ولو بالقوة، إذا لم ينجح بالحسنى! أرسل اليوم عجلاً وستة أكباش!

ـ لمن؟

ـ لمن؟ للسبعة! يريد أن نقيم زردة عشيّة الخميس المقبل!

ـ الخميس المقبل بعد غد!

ـ بعد غد. سيحضر هو وابنه الزردة.

ـ لكن ابنه في أمريكا! هكذا سمعت على كل حال...

ـ يذهب ويجيء كيف شاء ومتى شاء! إنه هنا في هذه الأيام. أوهمه بعض السكان أن الجازية ستحضر الزردة، وأنها إذا رأت ابنه ستعشقه في الحال، كما عشقت ذلك الطالب! غلَّطه!

ـ وكيف ذلك؟

ـ ابن الشامبيط لا يستطيع لعق المناجل والرقص مع الدراويش. لو فعل، لتركوه بدون لسان! يصبّون عليه المناجل الحمراء صبّاً! والجازية تحبّ المناجل الحمراء....

ـ صحيح؟

ـ من يتربى بين الدراويش لا بد أن يهوى المناجل!

حديث الدرويش بدا لعايد بسيطاً ومعقّداً في الوقت نفسه... لكن الأهم في نظره من كل الكلمات الملوّنة هو هذا النبأ الجديد: الشامبيط وابنه آتيان يوم الخميس للدشرة من أجل الجازية. ذلك يدلّ على أنه مصمّم على تزويج ابنه منها. وأخشى ما كان يخشاه عايد هو أن معرفة الشامبيط بعقليّة السكان وتملّقهم اياه، قد يسهل عليه مهمّته! أليس من ذكاء الشامبيط

ومعـرفته بخفـايا الـدشرة أن يبدأ مشروعـه بما تبـدأ بـه الـدشرة حياتها، بالزردة؟ سوف يرشو الجميع، ويخوّف الجميع حتى ينـال مقصـوده. من ذا يستـطيـع أن يـردّه عنهـا؟ الـرعـاة؟ يغـرّر بهم ويخدعهم، أو يشعل بينهم نـار الفتنة فيقتتلون... الـدراويش؟ الـزردة تكفيهم، فـإن لم تكفهم «زرّد» لهم من جــديـد، إلى أن يخرجوا من أطـوارهم نهائياً ويـدخلوا في «ملكوت» جنـونهم... السكّان؟ هو يعرف دخائلهم وأحقادهم... يضرب هذا بهـذا، يَعِـدُ هـذا ويهـدّد هـذا، حتى يصـل إلى مقصـوده. ثم إن وراءه أصدقاء ابنه الأقوياء... الجازيـة؟ ربما... ربمـا ترفضـه. وربما تعشق هـذا الذي جـاءها من آخـر الدنيـا، كما يقـول السكّان، ولعلّه يتقن فن الاغـراء والغوايـة! من قرأ في أمـريكـا لا بـدّ أن يتعلّم هـذه الأمور البسيـطة التي تصبغ الأشيـاء المظلمـة لتصـير براقة! وأنا... لم أستطع حتى رؤيتهـا! سخر مني حتى الـرعاة! لا شكّ أن السكّان كوّنوا لأنفسهم عنّي صورة، تجسّم السذاجـة والغباء!

ـ في أي شيء تفكر؟

ـ لا أفكر.

ـ يبدو عليك الحزن. هل مللت من حديثي؟

ـ بالعكس... أودّ أن أستمع إليك أكثر!

ـ أنت أيضاً جئت من أجل الجازية! أليس كذلك؟

ـ صحيح، لكن الآن عدلت عن ذلك. الجازيـة التي سمعت عنها وأنا بالمهجر، غير الجازية التي يتحدّث الناس عنها هنا...

قاطعه الدرويش قائلاً:

ـ اسمع، إنك هنا بين الذئاب! وما دمت تفكّر فيها لا يصادقك أحد! ابن الجبايلي نفسه الذي هو أعزّ أصدقاء أبيك، لو يتأكّد من رغبتك فيها يدفعك إلى الهاوية!

أفهمه عايد أنه لا يفكر في الزواج منها، وأن حديثه عنها يشبه أحاديث الآخرين. ليس فيه ما تترتب عنه أيّ مسؤولية. نصحه الدرويش بأن يعود من حيث أتى. إن الدشرة مقبلة على أيام سوداء، ليس فيها ما يرغب في البقاء لمن ليس مضطراً. وإن الجازية مكتوب عليها أن يكون أزواجها الأولون في الحرام... وإذا كان يرغب في الرجوع يوماً إلى هذه الدشرة، فليكن ذلك عندما تتزوّج الجازية زواجاً حلالاً!... قال له عايد:

ـ ما يحزّ في نفسي هو أني جئت من آخر الدنيا ولم أستطع حتى رؤيتها!

ـ ولماذا تريد أن تراها؟ إن وجهها غريب، يتشكّل بألف صورة!

ـ أودّ أن أراها. أن أحتفظ لها بصورة في ذاكرتي! من يدري قد أتزوج في المهجر وأموت، ولا يعرف أولادي عنها شيئاً!... إن أبي كان من رفقاء أبيها في أيام شبابهما وكفاحهما!

ـ ليلة الزردة إذا شئت، تعال. سأسعى لك في رؤيتها إذا

جاءت. عندما تراني أصرخ وأستنجد بالصالحين أدخل إلى حلقة الرقص! . . .

ـ أنا أودّ أن أراها وحدها.

ـ وحدها غير ممكن. هي لا تقبل، والناس يمنعونك. . . أما في الزردة إذا جاءت. . . .

ـ لكن أنا لا أحسن الرقص، ثم كيف أدخل؟ . . .

ـ أناديك باسمك، وأقدّم لك المنجل. . . اياك أن ترفضه!

ـ يحرقني!

ـ أناولك إياه بعد ما يبرد.

تمّ الاتفاق بين عايد والدرويش. وفكّر عايد أنه إذا استطاع أن يرى الجازية سيحقّق جزءاً من وصيّة أبيه. . . وسيتخذ بعد ذلك موقفاً واضحاً! وجرّته خواطره إلى ما أبعد من الرؤية. . . فكر أنّه سيحاول التحدّث إليها، ولو إشارة، ويتفّق معها على موعد! ثم من بعد إذا لم يتمّ بينه وبينها ما جاء من أجله، سيطلب يد حجيلة. . .

آه، لو يحصل هذا «المستحيل» الذي يتمنّاه كل الحالمين. . . تقبل الجازية الزواج منه، وتغادر الماضي الذي تحيا فيه إلى مستقبل مشرق برفقته! إن هذه الدشرة كما هي الآن في نظر عايد هي عين الماضي. والبقاء فيها بقاء في الماضي!

لكن الدرويش، هل حدّثه بصدق؟ ألم ينصب له شركاً آخر

ليسخر منه مع رفاقه، كما فعل الرعاة؟ لا، ليس هناك ما يدعو إلى الريبة في حديث هذا الدرويش.

غادر الدرويش ونفسه تتحرّق شوقاً إلى تلك اللحظة العذبة التي قد يرى فيها الجازية!

الزمن الأول:

- 7 -

ـ عبث!

لم أجبه. أحاديثه تقلقني أكثر مما تريحني. رآني أحاول نقش رقم واحد، بأظافري على الحائط، قال بصوته الجهوري: «عبث»! كأن الحياة في السجن شيء آخر غير العبث!

حاولت أن أعرف مقدار المدّة التي يستغرقها نقش رقم واحد بطول القلم، ومقدار الألم الذي يتركه في الأصابع! عبث ما في ذلك شك. لكنني أحببت أن أعرف كم استغرق من وقت رفيقي الذي لم تصل به ألفاته إلى الباب، في نقش تلك «العصيّ» المتتابعة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار...

عندما بدأت في نقش الرقم لم أفكر في الألم. فكرت في المدة، بينما المدّة ليست شيئاً بالنسبة للألم!

لم يبق من أظفار اليد اليمنى إلا ما التصق باللحم... ولما رأى «الشاعر» أصابعي مضرجة بالدماء ابتسم ساخراً وقال:

ـ الدماء أيضاً تبقى آثارها إذا أردت أن تترك لك آثاراً في

هذا السجن القذر!

لم أجبه مرة أخرى. لكني عجزت عن مواصلة المحاولة. آلمتني أصابعي بشكل فظيع. ضيّعت أظفار أصابعي الخمسة ولم أتمم «رقم واحد»! ترى كيف فعل ذلك الذي ملأ هذه الجدران بنقش عميق لا يزول إلا إذا سُدّ بالجير؟ إن إرادته من غير شكّ تفوق إرادة البشر!

ـ قلت لك من قبل، بالسجن لا تعدّ الأيام وإنما تعدّ الأغلاط!

ـ لست في حاجة إلى الدرس!

لماذا أجبته بهذه الفظاظة؟ هل عجزي عن نقش رقم واحد هو السبب؟ أم ثرثرته وتدخّله فيما لا يعنيه؟...

جلس في سريره ونظر إليّ بإمعان:

أتعتقد أنك لست في حاجة إلى الدرس؟

لم أفكر حتى التفكير في إجابته. إنه يحب الهذيان، وبسبب ذلك سُجن، لا شك في ذلك! شعرت بالاختناق. لم يبق لديّ شيء أفكر فيه. ذكرياتي استعدتها أكثر من مرة منذ دخولي إلى هذا السجن! أتمثّل كل ماضيّ كرواق مسجد أو حمام، ليس فيه ما يشدّ العين! لو أعدت استعراضه من جديد لوجدت أزخر فترة فيه هي تلك الأيام التي قضاها بيننا الطلبة المتطوّعون! إنها وحدها التي تمثّل نبضاً واضحاً في «اليكتروسكوب» الماضي!.

السجّان مقبل. خطاه الغليظة تسمع من كل الغرف. قال رفيقي الشاعر:

ـ إنه آتٍ إلينا. لا شكّ أن أحد رجال «النقابة» جاء ليخرجني! إنهم يظنّون أن هذه الفترة كافية لإعادتي إلى الطريق المستقيم!

فتح السجّان الباب وقال:

ـ امرأة جاءت لزيارتك، هيّا معي!

لم أرفع رأسي ولم أنظر إليه. ظننت أنه يخاطب صاحبي. لكن هذا لم يتحّرك، ولم يتكلم!

أعاد السجان:

ـ أنت! قلت لك امرأة جاءت لزيارتك. . .

نظرت إليه فوجدته ينتظرني أن أتبعه. امرأة جاءت تزورني أنا! من تكون هذه المرأة؟ حجيلة لا يتركها أبي تأتي إلى هنا، لا وحدها ولا معه. هو نفسه لا يأتي. . . الجازية؟ أنا أحلم. . . والأحلام لا يمكن أن تهبط إلى الأرض بهذه الصورة! سألته لأتأكد:

ـ جاءت لزيارتي أنا؟

ـ اسمها صافية.

صافية؟ خفق قلبي خفقان طير خائف. صافية التي تحسن حرق عواطفها بالسقائر. . . هذا الاسم العذب الذي يعيد إلى

النفس الثقة بالمستقبل! لم تنسني إذن!

قمت مضطرباً من السرور والمفاجأة، واتبعت السجّان إلى شباك الزيارات. ها هي ذي بذاتها وصفاتها ونظراتها القوّية، في فستان خوخيّ مرح! يا للسعادة! مدّت يدها تصافحني من وراء الشباك:

ـ كيف حالك يا الطيّب؟

الدموع أخذت تتململ من وراء مآقيّ. كبست عليها. ليس الوقت للدموع.

ـ كما ترين. وأنت؟

ـ كم أنا سعيدة برؤيتك يا الطيّب! حاولت مراراً أن أزورك لكن لم أتمكن من ذلك إلى اليوم.

رفعت قفّة كانت على الأرض إلى الشباك. أخرجت منها علبة كارتون. وإذا بالحارس يقبل. يريد التعرّف على ما تحتوي عليه.

ـ كم من واحد يراقب؟ لقد رآها الحارس بالباب... فيها حلواء وشكولاطة وسقائر...

قالت له ذلك بكل ما استطاعت أن تضع في صوتها من استنكار وجفاء. أجاب باستعلاء:

ـ القانون!

لم تردّ عليه. تركته يرى ما فيها. وراحت تسألني عن أحوالي وحياتي بالسجن، ثم قالت:

ـ جئتك بأخبار تسرّك.
ـ أخبار تسرّني؟
ـ الأحمر، ترك تقريراً هاماً. . .
قالت ذلك وبلعت ريقها، وعلت وجهها مسحة من الحزن.
ـ ترك تقريراً؟
ـ تقريراً ذا أهمية كبرى، يتعلّق بالسدّ وبموقع القرية الجديدة التي وهب الشامبيط قطعة أرض لتُبنى فيها. . .

فعلاً، الأحمر كان يعدّ دراسة عن السدود في المناطق الجبلية، كما كان يعنى بالمسائل الجيولوجية، بصفة عامة. وأظن أنه كان يعد رسالة لنيل ديبلوم مهندس دولة!

عادت إلى ذاكرتي تنقلاته الجبلية طوال إقامته بالدشرة، وقياساته، وتغيّبه أحياناً من الفجر إلى مغيب الشمس. . .

ـ ماذا قال في هذه الدراسة؟

ـ رأيه أن مشروع السدّ المقترح فاسد من الأساس. المياه التي يمكن تجميعها فيها قليلة. لأنها تغور في الصخور إلى أعماق لا يعرف أحد مداها، قبل أن تصل إلى السدّ. كما أن تكاليفه باهظة، لا تفي بمردود ذي بال. وفضلاً عن ذلك فهو يقطع الطريق الوحيد الموصل للدشرة وأراضيها الجبلية التي تدرّ أرباحاً أكثر مما يدرّه السد.

وبخصوص القرية الجديدة، أو قرية الشامبيط كما يسمّيها السكان فإن الأرض التي بنيت عليها غير صالحة تماماً سواء من

جهـة المنـاخ أو من جهـة الـتربـة. لقـد اتّضـح الآن جلّيـاً بعـد التحليلات التي قامت بها لجنة التحقيق أن منـاخها مـوبوء، وأن موقعها عرضة للهزّات العنيفة!

ـ قلت لجنة التحقيق؟

ـ السكان قدّموا شكوى ضد مشروع السدّ وضد ترحيلهم إلى قرية الشامبيط، من جهة، والدراسة التي تـركها الأحمـر من جهة أخرى دفعت الهيأة المختصّة برعاية الصالح العام لإنشاء لجنة من الخبراء تحقّق في القضية. اللجنة ذهبت إلى الدشرة منـذ شهور، متنكّرة تحت ستار العمل السينمائي...

ـ لماذا، متنكّرة؟

ـ لتستـطيـع العمـل بـدون تـأثـير من أي طـرف كـان... الشامبيط، أو بعض السكان المتعنّتين، لو علمـوا لحاول كـل من جهته تمييع التحقيق أو تزويره، بوسيلة من الوسائل!

ـ صحيـح! وخاصـة الشامبيط... لـو علم لأفسـد التحقيق مهما كانت قيمة اللجنة!

ـ لم يخبرك أبوك عن وصول لجنة الدشرة؟

ـ أبي لا يكـاتبني ولا يخـبرني بشيء! لكني لا أفهم كيف وقـع الشروع في بناء قرية في أرض غير صالحة؟ مع أن هناك دراسات أعدّت قبل البناء!

ـ المكتب الذي قام بالدراسات رُشي من الوكـالة التي يتعـاون معها الشامبيط!

ـ الشامبيط يتعاون مع وكالة؟ أيّ وكالة؟

ـ التحقيق ما زال جارياً بخصوص ذلك. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن. ونحن في إطارنا الطلاّبيّ كوّنا لجنة لمتابعة القضية عن كثب! لا بد أن نقاوم هؤلاء المجرمين مهما كانت ألوانهم وشعاراتهم الخداعة. لن نمكّن من المساس بمستقبلنا!

ـ مستقبلنا مرّوا عليه وانتهى الأمر!

ـ لا تتشاءم هكذا. ينبغي أن نقاوم!

«نقاوم...» الكلمات أضاعت كلّ معانيها! ينبغي إيجاد تسميات جديدة للأشياء! صافية ما زالت ببراءة الطالبة تتحدّث! سألتها:

ـ نقاوم من؟ الشامبيط يمثّل الحكومة. الطلبة المتطوّعون أرسلتهم الثورة. لجنة إعداد مشروع بناء القرية والسد وافقت على إنشائها الثورة. ولجنة التحقيق التي تتحدثين عنها الآن كوّنتها الثورة!... نقاوم من؟

ـ كم أنت طيّب وساذج! ألم تفهم بعد أننا في بلدٍ المستعمِل فيه (بالكسر) مستعمَل؟ (بالفتح). الذي استعملك استعمله، وانتهت القضية!

ـ لم تنته القضية ما دام السجن قائماً... دعينا من هذا الآن، حدّثيني ماذا تفعلين؟

ـ ما زلت أدرس.

ـ ما زلت بالجامعة!

ـ هذه سنتي الأخيرة بها.

وقف الحارس وأعلن:

ـ الوقت!

أخرجت صافية ورقة من حقيبتها اليدوية بها عنوانها وناولتني إياها. وقفت وضغطت على يدي بحرارة مودّعة:

ـ إلى اللقاء!

عدت إلى الغرفة منتشياً بهذا اللقاء المبهج الذي لم يكن في الحسبان!

ما أعذب صافية! أعادت إليّ ما يحبّب إليّ الحياة. «إلى اللقاء...» قالتها بصورة طبيعية، كما لو أنها متيقنة أننا سنتلاقى عما قريب! ما أحلاها وأصفاها!

الآن أخذت الأشياء تتضح في رأسي. السكان بحدسهم الجبلي رفضوا الرحيل ورفضوا السدّ. رفضوا التغيير الذي يأتيهم من حفدة الشنابط و«الدوائر» القدامى! رفضوا التغيير الذي ينزل من السماء، لا يَدَ لهم فيه. بالحسّ الجبلي شعروا بالخطر! أدركوا أن... بَرَكة... الثورة إذا نزلت إلى أدنى المستويات أصبحت تضخّماً!

الأحمر لم تذهب حياته سدى... قال: «أنا فكرة. والفكرة لا تموت»! لقد أصاب. سوف يبقى حيّاً لدى كل من عرفه أو سمع أفكاره!

ومع ذلك فإن الحيرة تساورني فيما يتعلّق بهذه الأخبار

الجديدة! إنها تحتاج إلى «هضم»، إلى فهم جيّد. عشرات الأسئلة ما تزال مظلمة! لماذا الأحمر لم يعرب عن موافقته للدشرة في رفض مشروع السدّ ورفض الرحيل إلى قرية الشامبيط؟ ألأن دراسته حينئذ لم تكن قد اكتملت؟ أم لأن ما فعله يستوجب القيام بتحاليل مخبرية؟... لم يخطر ببالي أن أسأل صافية عن نوع الدراسة التي قام بها. لكن هذا لا يهمّ كثيراً الآن...

ومقتله... هل للشامبيط دخل فيه؟ كيف يتعاون السكّان معه بما فيهم أبي ليشهدوا ضدي، بينما هو عدوّهم الأول؟ هو لم يشهد ضدّي! هناك كثير من الأسئلة ما تزال غامضة! لكن غموضها لن يمحو هذا السرور الذي أشعر به منذ اليوم! هذا الأمل الجديد الذي أتتني به صافية. لن تضيع مني... هذا عنوانها. المستقبل لن يكون مظلماً كما تخيّلته. صافية لم تتزوّج، ما زالت تدرس! كانت تنظر إليّ أحياناً بحنان يشبه الشوق! لا أملّ أبداً من النظر إلى صورتها في نفسي. من الاستماع إلى كلماتها في سمعي! لا أعرف عنها كثيراً. قالت ذات يوم إنها من عائلة متوسّطة الحال. أبوها أستاذ في ثانوية. أمها حلاقة. لها أخت تكبرها سنّاً متزوجة.

أشعر بالسرور وبالحيرة! أحس نفسي تتقلّب، لا تستقرّ على حال!

«لا بدّ أن أقاوم»! اتخذت هذه الكلمة عمقاً جديداً في نفسي بعد زيارة صافية! لكن من أقاوم؟ الأحمر قال: «نقاوم كل ما هو غير علمي»! كلمة جذابة، لكنها بريئة براءة الطفولة!

العلم. . . العلم ينتهي حيث يبدأ الانسان! الناس ليسوا أرقاماً مجرّدة. لو كان عليّ أن أصنّف الناس تصنيفاً ما، لوجب أن أستنزف كل ما وصل إليه علم الإنسان، ومع ذلك لن أصل إلى الحقيقة!

«الحقيقة قيمة تتغير باستمرار». . . هكذا قال لنا أستاذ الفلسفة!

الأحمر قيمة ثابتة! الموت ينهي التغير! الجازية ليست قيمة، هي شيء آخر. هي مجموعة من القيم والرذائل. هي حياة برمتها! صافية. . . ما أعذب صافية! قلبي يتوق إليها توقاناً صوفياً! صافية جعلتني زيارتها أعود إلى الغرفة كالحالم! الألفات العمودية التي لم تصل بصاحبها إلى الباب، لم أرها. الصور «البورنوغرافية» امّحت، الجدار صار صافياً. جروح أظفاري نسيت آلامها! صافية لم تنتبه إلى أصابعي. ربما حال دون رؤيتها إياها الشبّاك!

أضع علبة «الكارطون» إلى جانبي دون أن يتحرّك فضولي لفتحها. أحلم. صافية فتحت المجال للأحلام. أخرج من جيب قميصي الأزرق السجني الورقة التي كتبت فيها عنوانها. أقرأ العنوان حرفاً حرفاً. أرى مع الحروف أصابع صافية الرقيقة الناعمة! العنوان أيضاً اتخذ محتوى عاطفياً!

- إنك تحلم! هذه الزيارة أعطت لوجهك وجهاً جديداً.

نظرت إليه بابتسام. أخذت علبة «الكارطون». وضعتها في

حجري. هي أيضاً انسلخت عن «كارطونها» الميت وصارت حية! الآن أفهم الفلسفة الإحيائية! الإحيائيون محبّون! أفتح العلبة. أخرج ما فيها. أجد ما قالته صافية للضابط: حلواء وشكولاطة وسقائر. أناول علبات السقائر إلى رفيقي.

ـ وأنت؟

ـ أنا لا أدخن.

ـ سجين ولا تدخن؟

ـ الآن لست سجيناً، أنا حالم!

فتح العلبة في الحين فأشعل سيقارة وراح يطفىء، أو يحرق، ظمأه إلى التدخين! بعد مجموعة من الأنفاس المتتالية التي امتصّها من السيقارة قال:

ـ السجن بلا دخان يشبه الحياة في النقابة!

لم أفهم جيّداً مقصوده... كلماته غريبة ومثيرة. سألته:

ـ أي نقابة! عادةً الحياة في النقابات مشرفة...

ـ أنا أتكلم عن نقابتنا.

ـ هل للشعراء نقابة؟

أعدت السؤال السابق نفسه عليه... فأجاب هذه المرة:

ـ لست أدري. أنا لست شاعراً، إنما رجال النقابة يسخرون مني. سمّوني شاعراً لأن كلامي لا يترتّب عليه شيء. لست صاحب قرار!

ـ إذا كنت متذمراً من هذه «النقابة» فلماذا لا تغادرها وترتاح؟

ـ أودّ لو أستطيع. أضع بيني وبينها الدنيا كلها! لكن للأسف، لا أستطيع مغادرتها. إنها كالدوّامة، من لم يدر في مجالها تغرقه.

بدا لي حزيناً يبعث حاله على الشفقة. ناولته شيئاً من الحلواء والشكولاطة. في الواقع كنت أودّ أن يصمت لأتمكن من استعادة ذكرياتي المتّصلة بصافية. إن زيارتها أحدثت في نفسي انقلاباً. كلما مرت دقيقة ازدادت حضوراً في ذهني، وأخذت كلماتها تتّسع لتتخذ أبعاداً لم أكن أعطيها أهمية من قبل.

اختلطت في ذهني الذكريات بكلام صاحبي «الشاعر». قلت له، كما قال لي الأحمر ذات يوم: «لا بدّ من المقاومة...»

ـ لماذا لا تقاوم النقابة إذا كانت تظلمك؟ ان المقاومة هي المقوّم الأساسي لإنسانية الإنسان. كلما قاوم الظلم اكتسبت إنسانيته بعداً جديداً. وكلما تخلّى عنها تخلى عن جزء من إنسانيته!

ـ لا أستطيع. إنها ككرة متعدّدة الوجوه. كل وجه منها يعكس الظلام.

ـ الظلام لا ينعكس!

ـ أنا لا أفكر في ضبط كلماتي. أحببت أن أقول: هي صورة واحدة مظلمة في كل الوجوه، فإذا بدا أحياناً أنها تعكس أضواء فهي أضواء زائفة!

لم أفهم عنه ولا عن نقابته شيئاً. لم يسمّوه شاعراً عبثاً...

أخذت حبة من الحلواء، وأشرت له إذا كان يريد أيضاً. جلس في سريره بحيوية، لكنه رفض أن يتناول الحلواء. وسألني:

ـ هل قرأت «حمار الذهب» لآبوليوس؟

ـ لا، لا أعرفه.

ـ آبوليوس أو «آبلي» كاتب جزائري قديم في عهد الرومان. كتب رواية سماها «حمار الذهب» هي هذه. في صفحاتها الأولى يخاطب القارىء هكذا...

أخذ الكتاب وبدأ يقرأ:

«سوف تبتهج عندما ترى كائنات بشرية تغيّر طبائعها وخلقاتها لتأخذ أشكالا أخرى. ثم بحركة معاكسة تتحول من جديد إلى صورها الأولى...» هكذا تماماً رجال النقابة! يتخذون أشكالاً مختلفة لأشكالهم كالحرابي، ثم يعودون آلياً إلى طبائعهم الأولى، عندما ينفرد كل واحد منهم بنفسه! إنهم أشخاص يملأ الليل رؤوسهم!

ـ أنت عدوّ للنقابة على ما يظهر!

ـ لم تفهم شيئاً من حديثي...

صحيح، لم أفهمه! لم يكن هناك ما يجمع بيننا إلا السجن. على أن سجنه طبيعي بالنسبة إليه، يدخل إليه ويخرج منه، كما يدخل المرء إلى الحمّام!

ـ عندما كنت صغيراً كنت أعتقد أن المذيع يـذيع آراءه. ولمـا كبرت أدركت أنه يذيع آراء غيره!

ـ وماذا في ذلك؟

ـ خسارة! . . .

فكرت أن أصمت وأدعه يهذي . . . أضاف:

ـ خسارة أن لا يتكلم صاحب الرأي!

في الـدشرة صـاحب الـرأي هـو الغيب، والمـذيعـون هم الدراويش!

ـ أتعرف لماذا سُجنت؟

ـ لماذا سُجنت؟

قلت لـه الكلمة جـافّـة ليكفّ عنّي! في كـل مرة يقـطع عني تسلسل أفكاري. قال:

ـ كان صحافي يقـوم بتحقيق عن النقابـة. سألني لمـاذا تجتمع دائماً، حياتها تمضي في الاجتماعات؟ أجبته بـأن الاجتماعـات هي التي تخلق في رؤوسهم الأفكـار! لما علمـوا بذلـك اتهموني بـأنني أعرّض بغبائهم أمام الصحافة، وأنهم كأفراد لا يستطيعون خلق فكرة واحدة صالحة. هم يجتمعـون في الواقـع مع من ليسـوا من النقابة ليتعلّموا منهم!

ـ هم إذن أذكياء لا أغبياء! يأخذون أفكار غيرهم ليحكموهم بها!

ـ وأنت لماذا سجنت؟

ـ حكاية طويلة. سأحكيها لك ذات يوم.
ـ هل شتمت موظفاً كبيراً؟
ـ لا.
ـ هل قدحت في ضابط؟
ـ لا
ـ هل انتقدت سياسياً؟
ـ ولا ذاك.
ـ هل قلت شيئاً ينقص من قيمة الخرافات؟
ـ لا.
ـ إذن لماذا سجنوك؟

في كل مرة أتحدّث معه يتأكّد لديّ أكثر فأكثر، أنه مصاب بمرض عقلي! أو أني صرت في هذا السجن لا أفهم شيئاً!

لما رآني سكتّ وامتددت في سريري، انقطع بدوره عن الكلام وعاد إلى مطالعة رواية «حمار الذهب». قرأت العنوان من بعيد فتذكرت صافية بالدشرة... عندما ركبت من البيت إلى العين على ظهر حمارة استطابت ذلك غاية الاستطابة! لكنها لم تركب كالقرويّات منفرجة الرجلين، رفضت ذلك. ركبت كما تركب الأوروبيات المحظوظات! مع أن الركوب برجلين متدلّيتين إلى جهة واحدة خطير هناك. عثرة واحدة من الحمارة تؤدي بالراكب إلى الهلاك. قلت لها إن ركوبك هذا الذي يشبه الجلوس على كرسي خطير! لم تذعن...

مشيت جانبها، على استعداد للتدخّل في أي لحظة.

ولما اقتربنا من البيت ونحن راجعان رأيت أبي جالساً على الدكة الحجرية، خجلت! قفزت هي إلى الأرض ضاحكة، أثنت على الحمارة أمام أبي...

صافية العذبة!

أود أن أنام حتى تنتهي هذه السنون!... ترى هل تعود لزيارتي عما قريب أو... لكن لا أدع الأحلام السوداء تعود إلى رأسي مرة أخرى!

صافية ستعود!

الزمن الثاني:

- 8 -

اشرأبّت الأعناق تتنسّم أخبار الـزردة. يقيناً، لن تكـون هذه المرة زردة كسائر الزردات! الوقت الذي تقـرّر لإقامتهـا هو بعـد ظهر يوم الخميس. في النهار الواضح! الزردات العـادية تقـام في الليـل. لكن الشامبيط هـو الذي حـدّد الوقت. قـال ليتمكن ابنه من رؤية الجازية، ولتتمكّن هي من رؤيته.

العجـل والأكباش الستـة التي تبرّع بهـا الشامبيط لتـذبح بهـذه المنـاسبـة، لم تـطلق للرعي. أبقيت بحـظيرة معشـوشبـة لقضـاء الصبيحة تكريماً لها، وإراحـة من عناء الجـري والتنقل المتـواصل مـع الأحراش، بحثـاً عن لقمـة من هشيم أو عشب. المـوت يُعطي راحة كما يقول المثل!

إن هذه الزردة سـوف تكون حـاسمة في حيـاة الدشرة. فيهـا يتقرر مصير الجازية وحياتها إلى أمد لا يدخل في إطار المتـوقّع من الأحداث. إن ابن الشامبيط هذا الذي قرأ في آخر الـدنيا وجـاء إليهـا من أمريكـا، ليس من الهينّ صـدّه. بل قـد تعلقه هي في غمـرة من غمـرات مـزاجهـا المتقلّب! لن يستـطيـع الـدراويش

الوقوف في وجه رجل له خيوط خفيّة تربطه بالدنيا القريبة والبعيدة.

ونظراً لأهمية هذه الزردة في مصير الجازية بنت الشهيد، كثرت حولها التعاليق والتكهنات. البعض راهن على أن الجازية لن تحضرها. لأنها تقرّرت من وراء رأسها. وهي عادة ترفض ذلك النوع من الحالات. كما يرى هذا البعض أن الشامبيط ما زال يقيس الأشياء بزمانه. ومن ثمة سيخسر أمواله، وابنه سيخسر أحلامه وأحلام أنصاره الذين توسّموا فيه رجل الساعة...

البعض الآخر عكس ذلك، قال: إن الجازية فتاة مغامرة. سوف يدفعها الفضول وحبّ المغامرة إلى المجيء للحضرة. وسوف تقبل الزواج من ابن الشامبيط، وليكن بعد ذلك ما يكون! ليس هناك من يستطيع الوقوف في وجه الشامبيط. الدراويش يغريهم بالمال. الرعاة أطماعهم فيها تحول بينهم وبين الدفاع عنها. الأخضر بن الجبايلي لا يستطيع حمايتها. أسلوبه هو القتل، والجازية لا ترغب في أن يقتل خطّابها الواحد بعد الآخر! أما ابن المهاجر فذاك لا يدخل في حساب. جاء بالأحلام ويعود بالصداع!

أما عقلاء الدشرة ففضّلوا انتظار الأحداث لإبداء آرائهم. من يدري أن الجازية ستأتي أو لا تأتي إلى الحضرة بصفة يقينية؟ من يدري أن الجازية ستراقص ابن الشامبيط أو لا تراقصه؟ لا

أحد. ثم إن الجارية مغامرة، ومغامريتها تجعلها تعيش باستمرار في الزمن الذي لم يوجد!

هذه التعاليق والتكّهنات كلها قيلت مرات ومرات، حتى حفظها عايد، وجعلته هو بدوره يبني ويهدم في كل ساعة تكهّناً جديداً.

وفي اليوم الموعود، اتخذ له مجلساً بأحد أفنية الجامع منذ الصباح في مكان يشرف على كل جهات الساحة ومداخلها، ليراقب عن كثب ما يجري من أحداث.

في البداية جاءت مجموعة من العجائز يحملن قفافاً. دخلن إلى بيت هناك يدعى «دار الأحباس». وبعد لحظات خرجن مشمّرات متحزّمات، وطفقن ينظّفن ساحة الجامع والجهات المحيطة بها، بمكانس من شجر الدوم. بعد ذلك أخذن قرباً وذهبن يستقين، ولدى عودتهنّ مباشرة رششن بالماء كلّ الأماكن المعدّة لإعداد الطعام والأكل والجلوس رشّاً قويّاً حتى صار الجزء الظاهر من الرصيف الحجريّ الذي تتربّع عليه الساحة والجامع وجانب من الدشرة يلمع نقاء.

وصلت بعد ذلك أحمرة تحمل حطباً جزلاً من شجر البلّوط والعرعر. ثم جاء وكيل الزردة يتقدّم أشخاصاً يحملون على ظهورهم شكائر من دقيق وموادّ أخرى مختلفة من خضر جافّة وتوابل.

أعدّت إحدى العجائز إبريقاً ضخماً من القهوة، وقدّمت للحاضرين فناجن.

تقاطر الأطفال والبنات والعجائز والشيوخ والنساء على الساحة أفواجاً. بحيث ما أن حلّت الساعة الحادية عشرة حتى كانت كلّ الجهات المحيطة بالساحة مكتظّة بالناس، من كل الأعمار. الفتيات تزيّنّ بما يملكن من أدوات الزينة والتجميل القرويّة، ولبسن ملابس الأعياد والأفراح. شفاههنّ تبدو قرمزيّة من حكّها بقشرة الجوز الذي يتخذنه سواكاً. عيونهن تظهر بهالات زرقاء من الكحل الذي اكتحلن به. السرور طافح على الوجوه!

ثم سُمع دوي الطبول وألحان المزامير معلنة مقدم الفرقة الفلكلورية التي ستحيي الحفل... وبعد لحظات وصلت إلى مدخل من مداخل الساحة، يتبعها الدراويش ثم العجل والأكباش الستة، التي حُنئت بالحناء والقطران. زغردت النساء زغردات متتالية. تكهرب الجوّ، واكتسى صبغة جلال ورهبة وفرح! أدخلت الحيوانات إلى السقيفة المعّدة لها ريثما يحين وقت ذبحها.

نسي عايد نفسه في خضمّ الحركة الدائبة التي سادت الساحة كامل الصبيحة. لم تكن حركة عادية. كانت حركة تصاعديّة تزداد كثافة واتساعاً كلما مرّ الوقت حتى بلغت لحظة التوتّر الذي يتقدم الانفجار والانشراح معاً!

خرج وكيل الزردة ومعه الدراويش إلى الساحة. كل الأنظار اتّجهت إليهم! كانوا يتساءلون عن سبب تأخّر الشامبيط وابنه. المفروض أنهما قد وصلا منذ مدّة، لتبدأ مراسيم الزردة، من ذبح العجل والأكباش والدوران حول الساحة... وكان التساؤل مشوباً بالحيرة. ماذا يفعلون؟ أينتظرون ساعة أخرى أو ساعتين؟ لكن الوقت لا يسمح بذلك. متى يتمّ الذبح والإنضاج والإطعام؟ الدشرة كلّها مجتمعة في الساحة. يجب أن يأكل جميع الناس ويشربوا. قسم كبير منهم جاء من أجل ذلك. لكن حضور الشامبيط أو ابنه ضروريّ للمراسيم التي تتقدّم الذبح. لا بدّ أن تطوف الأكباش والعجل سبع مرات حول الشامبيط أو ابنه، ثم تذبح بعد ذلك!

في الواقع، الشامبيط هو صاحب الهدى، ومن ثمة ينبغي أن تطوف الأكباش حوله في الساحة، وهو واقف يراه الناس جميعاً ويراهم. هو يحبّ أن يروه في مشهد مثل ذلك. لأنه يوهمهم أنه مثلهم، يؤمن بما يؤمنون ويخضع لما يخضعون... ماذا ينبغي فعله؟ الوقت لم يعد يسمح بتأخّر. الساعة توشك أن تسجّل الثانية عشرة!

اقترح أحد الدراويش أن توضع حجرة في وسط الساحة، رمزاً للشامبيط، وتطوف حولها الأكباش والعجل! ردّ عليه الوكيل، بدهشة، أن الحجرة إذا جعلت رمزاً للإنسان، لا ترمز للحيّ وإنما ترمز للميت! إنك «تنبّأت» بموت الشامبيط! أجابه الدرويش بأنه لم يفكر أصلاً في موت الشامبيط، ولا كان يعلم

أن الرمز بالحجر إلى الإنسان يدلّ على الميت. إنما عرضت على خاطره الفكرة فأبداها، ربحاً للوقت. . .

في النهاية استحسن الجميع الفكرة، مستشهدين بالمثل الذي يقول: «كلمة عليها ملك وأخرى عليها شيطان»! ثم إن الموت بيد الله!

أخرجت الأكباش والعجل من السقيفة. صفّت واحداً بعد الآخر. في المقدمة العجل يقوده درويش. انطلقت دقّات الطبل وأنغام الزرنة وصيحات الدراويش، وبدأ الطواف حول حجر وضع في وسط الساحة، وبانتهاء الطواف السابع قيدت إلى المذبح. بينما الفرقة الفلكلورية أخذت تعزف ألحاناً راقصة سريعة. ودخلت العجائز والنساء والفتيات الباحة يرقصن مع الدراويش.

لم تمض دقائق حتى تمّ الذبح والسلخ والتقطيع. وجيء بطرف من كروش الأكباش إلى الدراويش لأكلها نيئةً كما جرت العادة. . .

لكن الشامبيط لم يصل. الحيرة أخذت تستولي على الوكيل. ليس من عادة الشامبيط التخلّف عن مواعيده، ولا سيما موعدٍ مثل هذا! لا شك أن هناك شيئاً حصل، منعه من المجيء، ولم يتمكن من إرسال مخبر!

الجارية أيضاً لم تأت. الساعة الثانية بعد الزوال. لم يبق على موعد الافتتاح الرسمي إلا ساعة واحدة!

قرّر الوكيل ومساعدوه إطعام الناس. كلّ شيء جاهز. حطب البلوط والعرعر لم يدع اللحم يستنزف صبر الناس... نضج في أقلّ من ساعة!

جاء الدرويش إلى عايد، ذاك الذي دعاه في البستان إلى تناول بعض الفواكه، جاء إليه وقاده إلى إحدى الجفان. لأول مرة أكل عايد بيده مباشرة، لا ملعقة ولا وسائط أخرى زائدة عن الطبيعة!

الساعة الثالثة! الشامبيط لم يصل! الوكيل والدراويش يقلّبون أيديهم حائرين!

الجازية أيضاً لم تأت! هل علم الشامبيط بممانعتها فذهب يسترضيها ويطلب إليها الحضور؟ ممكن. كل شيء ممكن في هذه الدشرة! يمكن أن تقوم الساعة والبعث في لحظة واحدة ولا يستغرب ذلك أحد! إن الحياة هنا متّصلة بأسباب ظاهرة وخفيّة، متّصلة بالمادة وما وراء المادة!

اللحظات تمرّ، والحيرة تزداد والجوّ يتكهرب!

ها هي ذي مرّبية الجازية أقبلت!

معها فتاة... هل هي الجازية؟ خفق قلب عايد! أمتدّ الخفقان إلى سائر جسمه. لا، ليست الجازية. الحاضرون يقولون إنها ليست الجازية! وجهها مغطىّ بلثام. من هي هذه التي تأتي مع عائشة بنت سيدي منصور؟ لماذا لم تأت الجازية؟ هل هي آتية مع الشامبيط؟

اللحظات تمرّ! الساعة الثالثة والنصف!

الوكيل يقرّر الشروع رسمياً في الحضرة!

الطبول تدقّ. الزرنة تزمرّ. الدراويش يرمون عمامتهم ويرقصون!

لأوّل مرة يرى عايد «الحضرة» بكلّ مقوّماتها! إنها شيء رهيب!

وجوه الدراويش تنقبض. يزول عنها انطلاقها كلّية. أفواههم تزبد رغواً كرغو الصابون.

الدرويش ينادي: «عايد»!

يلتفت الحضور بفضول، باحثين من المنادى عليه؟

يقوم عايد في خجل. يتقدّم إلى الباحة متعثّراً. تشرئبّ أعناق النساء لرؤيته. «إنه جميل! وجهه كالحليب بياضاً وطراوة»! هكذا تعلّق بعض النساء... الدرويش يراقصه. لكن رجليْ عايد لا تستجيبان لرقص الدرويش. بل تتابعان الأنغام برقص أجنبي!

يعيد الدرويش الكرّة، يرغمه على تقليده حتى ليكاد يجرّه! شيئاً فشيئاً تستجيب رجلا عايد. صار يرقص كالدرويش تماماً. يطاطىء رأسه في ركوع ويرفع ذراعه اليمنى مرة واليسرى أخرى في حركة موزونة، مع الضرب بالرجلين على الأرض حسب إيقاع الطبول....

يبتسم الدرويش. ينادي بنداآت ضراعة وتوسّل إلى الأولياء...

تقوم الفتاة التي جاءت مع مربّية الجازية. تدخل الرحبة وترقص! يتعرّف عليها عايد! يتعرّف عليها الدراويش وكلّ الحاضرين: إنها حجيلة! يلتفت الناس يميناً وشمالاً باحثين عن أبيها وعن أمها فلا يرون شيئاً!

هل أتت خفية عنهما؟

والجازية، أين تركتها مربّيتها؟ هل جاء الشامبيط وابنه وأخذاها؟ هل طلب الشامبيط إقامة هذه الزردة خدعة للناس وتلهية لهم، ليتمكّن من أخذ الجازية دون أن يعترضه أحد؟

الأسئلة أخذت تنزل من الرؤوس إلى الألسنة...

المناجل أُحميت وبدأ تقديمها للدراويش!

أكفهر الجوّ تماماً!

الحضرة بلغت أوجها. الدراويش يتصارخون، الطبول تزداد دويّاً. نور الشمس يتّخذ لوناً آخر على الساحة والوجوه التي يقع عليها... يتخذ لوناً محمراً داكناً! لحظات جدّ متوتّرة تعيشها رحبة الجامع! وإذا براعي السبعة يقبل لاهثاً مستصرخاً الناس بأعلى صوته.

الشامبيط مات! الشامبيط مات! النجدة! النجدة!

ـ الشامبيط مات؟

ـ الشامبيط مات؟

ـ الشامبيط مات!

ـ أين؟

ـ في حافة المخاطر!

ـ كيف مات؟

ـ أرسلني الأخضر بن الجبايلي، يطلب المساعدة!

توقّفت الحضرة. وساد الهرج والمرج بشكل غريب!

مرت لحظات ذهول وتساؤل وحيرة واختلاط قبل أن تهبّ مجموعة من الرجال إلى مكان الحادث. بينما انطلقت النساء عائدات إلى بيوتهن.

وانطلقت التعاليق المجنّحة من الأفواه تملأ الفضاء!

عايد بمجرد أن سمع النبأ قفزت في ذاكرته صورة قطيع الأكباش منطلقة كالسيل والراعي وراءها!... وتساءل في نفسه: «من وراء موت الشامبيط؟ ماذا كان يعمل هناك الأخضر بن الجبايلي؟ والراعي كيف كان هناك ولم يحضر الزردة»؟

* * *

المشاريع العريضة تنسى في الموت! بينما الموت هناك، حيث لا ينتظره المرء! لا يتخلّف أبداً عن مهمته، ولا عن وقته! الموت جدّيّ!

كانت مشاريع الشامبيط أعرض من حياته. لم يفكر في الموت. لماذا يفكر فيه والحياة تفتح أمامه آفاقاً لأحلام زرقاء لا تراود حتى الشعراء! لم ينج بحياته وأمواله فقط من الحرب، نجا بأحلامه أيضاً! ذكاؤه مكّنه من اللعب على كلّ الحبال. في الوقت الذي كان يفترض فيه أن يكون ملتقى للسهام. استطاع

هو أن يكون موزّع الورقات الأخيرة! عندما تنسدّ السبل بأصحابها يمرّون به. الأزمنة لم تكن لديه منفصلة. كانت تشكل إطارات ملائمة لإنجاح أعماله. الاشتراكيون والرجعيّون، الدراويش والعقلاء، الرعاة وأرباب المناصب... كلّهم يجدون لديه تفهّماً وتعاطفاً إن احتاجوا إلى تعاطف. كان يستعذر عن المستعذر! طبعاً، ذلك لا يعني أن الناس كانوا يحبّونه. إنما كانوا يحتاجون إليه. وكانوا يعرفون أن مكانه لن يبقى شاغراً... إن ذهب هو سيأتي من يخلفه! الشنابط يتعاقبون على الشمبطة أكثر من الأولياء على الولاية، وهو كان يعرف كل ذلك... لم يكن في حاجة إلى حبّهم. ما يهمه منهم أن يكونوا سدى للحمته ينسج عليهم اللون الذي يريد، والثوب الذي يريد. ذلك هو المهمّ في نظره!

كلّ تلك الصفات التي كان يتحلّى بها، مضافاً إليها دراسة ابنه في أمريكا، أهّلته لأن يكون محلّ ثقة أرباب المصالح في الداخل والخارج!

لم يكن يطمح في البداية إلى أن يصل إلى مستوى الخاطب للجازية، في يوم من الأيام! لكن تجاربه المختلفة مع الحكام المتعاقبين على الدشرة جعلته يدرك بصورة لا تقبل الشك، أنه حيثما توجد ثورة توجد ثروات وأطماع وتنافس... لعب كل الورقات الرابحة في الداخل والخارج. وفي اليوم الذي أصبحت فيه الجازية مطمع الرعاة والدراويش وأصبح ابنه محطّ آمال كبيرة، نصحه أصحاب النصح، بتزويج ابنه من الجازية! أول

الأمر استغرب النصيحة! لماذا الجازية؟ إنها فتنة! وفوق الفتنة هي أسطورة! الجازية بنت الشهيد الذي قتل بألف بندقية ودفن في حناجر الطيور!. . . لماذا كلّ هذا، والفتيات موجودات في الداخل والخارج. وخاصة لمن «درس في أمريكا»!

لكن النصيحة كانت تغلف أمراً لا مناص من تنفيذه! ساوره الخوف. . . ثم شيئاً فشيئاً أستحلى «النصيحة». . . إنه حلم العمر يتحقّق، إذا تزوّج ابنه الجازية! تغسل ماضيه بماء عطر! ابنه وأحفاده من بعده سوف يصبحون في الأفواه والأفكار حفدة أكبر فاعل للتاريخ!

ليس له أن يفكر فيما وراء الأحداث على كل حال. نُصح بأن يزوّج ابنه بالجازية وكفى! من الناحية الخلقية؟ الأخلاق مع القويّ! هذه حقيقة أصبحت معروفة، لا فائدة في التعرّض إليها. . . وأيّ أخلاق أكبر وأجمل من تحقيق هذا الزواج العظيم؟

لذلك، بذل كل ما يملك من وسائل الإغراء لدى السكّان والدراويش والرعاة، ليتمّ هذا الأمر بصورة عادية، لا تستفزّ أحداً ولا تذلّ أحداً.

الرجل الذي كان يتشوّف إليه أن يكون زوج الجازية هو في السجن وإلى وقت بعيد. والعرف لا يحرّم خطبة فتاة لم تخطب رسمياً. ليس هناك من سمع طلقة بارود ولا زغردة تشيع بين

السكان رسمية خطبة الجازية من طرف الأخضر بن الجبايلي لابنه الطيّب! هذا كلام قاله الشامبيط للسكّان المرات العديدة، وقاله له بعضهم من ذوي الأغراض... اذن هو منسجم تماماً مع مقتضيات السلوك والأصول!

* * *

الصعود إلى الدشرة لا يكون إلا على الرجلين أو ركوب البغال والحمير. وللشامبيط بغال وخيل وحمير! لكنه للذهاب إلى الدشرة لا يستعمل إلا بغلة واحدة تعرف الطريق والتواآته وعراقيله معرفة غريزية. لا تعثر ولا تتعثر ولا تخاف!

غير أنه في هذه المرة ليس وحده. والبغلة لا تستطيع حمله هو وابنه مع ذلك الطريق الجبلي الشاقّ. إن أركب ابنه على بغلة أخرى فلا يأمن عليه من عثرة أو شيء يخيفها فتقفز وترمي به إلى الهاوية. ابنه أعزّ عليه من نفسه! الحل إذن أن يعطي بغلته «العاقلة» إلى ابنه ويركب هو بغلة أخرى. هو على الأقل متعوّد على ركوب البغال ويعرف الطريق.

بردعت البغلتان وأحكم حزامهما وركب الشامبيط وابنه، صاعدين نحو الحلم!

* * *

انتهت العجوز عائشة من صلاة الصبح، وشرعت تسبّح

كعادتها بعد كل صلاة. النهار ما زال ضوؤه رمادياً بنفسجياً، لم تتضح معالمه، وإذا بالباب يدقّ دقّات خفيفة، دقّات تعرف صاحبها العجوز عائشة! قامت من مصلّاها ففتحت الباب. دخل الأخضر بن الجبايلي وأخبرها أنه جاء ليأخذها هي والجازية إلى داره. استحسنت رأيه. لقد أراحها من وسواس ساورها كامل الليل تقريباً. كانت تخشى أن يأتي الشامبيط ورجاله لإرغامها هي والجازية على الذهاب إلى الحضرة، أو لتهريب الجازية!

لحظات قليلة كفت العجوز والجازية لتكونا جاهزتين.

دخلتا إلى بيت ابن الجبايلي وعايد نائم! يا للصدق! مرت الجازية على بضع خطوات منه، وهو نائم لا يدري!

عندما استيقظ أتته حجيلة بالقهوة وأخفت عليه خبر الجازية!

كان ينتظر رؤيتها بشوق، ولكن في ساحة الجامع!

بينما الأخضر بن الجبايلي أخذ بندقيته وقال لزوجته وهو يتأهّب للخروج:

ـ لا أحد يغادر البيت قبل أن أعود.

سألته زوجته:

ـ والزردة، ألا نذهب إليها؟

ـ لا تذهبين.

وأضاف بعد لحظة تفكير:

ـ أنت والجازية ابقيا بالبيت. إذا شاءت العجوز عائشة وحجيلة الذهاب، فلهما ذلك.

وخرج.

وفي مكان منخفض عن الدشرة غير بعيد عن الطريق العادي المؤدّي إلى سفح الجبل، جلس. على يساره بنحو المائتي متر ارتفع إلى السماء جزء من الجبل، حيث اتخذ الحمام البرّي له هناك وكراً. وعلى يمينه بالمسافة نفسها تقريباً، يرى منعرج حافة المخاطر!

بعد نصف ساعة أقبل راعي السبعة بأغنامه. تبادلا التحيّة وبعض الكلمات، ثم ذهب الراعي وراء أغنامه، بينما بقي الأخضر في مكانه يترصّد الحمام...

حلّقت حمامتان في الفضاء وعادتا إلى رأس الجبل. الساعة كانت حوالى التاسعة. اصطياد حمام الجبال يقتضي الخبرة والمهارة، وكلتا الصفتين متوفّرتان لدى الأخضر بن الجبايلي. انتظر أن تحلّق الحمامتان ثانية وتقتربا منه لإطلاق النار عليهما. لكن الحمامتين فضلتا البقاء بالقرب من وكرهما! ففكّر لو يحاول ضربهما هناك... كان الشامبيط وابنه حينئذ قد وصلا إلى منعرج حافة المخاطر. رآهما الأخضر بجلاء. قرّر أن يطلق طلقة أولى يفزع بها الحمامتين لتطيرا ويضربهما بالثانية. لم تمض بضع ثوان على الطلقة الأولى حتى سمع دويّ قطيع الغنم منحدراً مع الطريق كالسيل، ورأى الحمامتين في الفضاء فأطلق النار ثانية. لم يصب الحمامتين، لكن رأى إحدى البغلتين، وهي البغلة التي

يركبها الشامبيط، تجري جرياً عشوائياً! لا شك أن البارود أو انحدار قطيع الغنم أخافها! لم يستطع الشامبيط تهدئتها والسيطرة عليها، لم تمض ثوان معدودة حتى فقدت توازنها وارتمت في الهاوية هي وراكبها!

رأى الأخضر الشامبيط متدحرجاً مع الأحراش إلى أسفل كحزمة من ملابس! أسرع بكل ما استطاعت رجلاه عليه إلى المكان، لكنه كان متيقناً أن الشامبيط لن ينجو من هذه السقطة الخطيرة! كما أسرع الراعي من جهته، وهو يشتم الأغنام ومن أهداها إلى السبعة بكل الشتائم التي يعرفها.

التقى بالمنعرج هو والأخضر فبادر قائلاً إن البارود أفزع القطيع فلم يستطع صدّه عن الانحدار!

ابن الشامبيط نزل من على ظهر بغلته مبهوتاً! إن المشهد الذي جرى أمام بصره جدّ مروّع! أبوه تتمزّق أوصاله أمام بصره ولا يستطيع حتى إسعافه... ولما رأى الأخضر قال له وجلاً مصعوقاً: «اندلقت به البغلة عن الطريق! سقطا معاً إلى الهاوية. إنه هناك! لا شك أنه مات!...».

هدّأه الأخضر بما استطاع من كلمات ثم حاول النزول إلى المكان الذي سقط فيه الشامبيط، فلم يستطع. كان النزول جدّ خطير. حاول الراعي بدوره فنهاه الأخضر. قال له، «لا بدّ من حبل... الذهاب إلى الدشرة يستلزم وقتاً طويلاً. الرأي أن أهبط على الطريق العادي إلى النقطة التي تنثني فيها الطريق، وأحاول الصعود إليه من هناك».

نجحت محاولة الأخضر في الصعود، بعد مشقّة وعسر. لكنه وجد الشامبيط جثّة هامدة! رأى الدم يسيل من رأسه. لا شكّ أنه ارتطم بحجر. . .

وبعد عدة محاولات فاشلة للنزول بالجثّة، قرّر أن يرسل الراعي لطلب النجدة! بل لم يستطع هو نفسه النزول من هناك! المكان وعر لا يمكن النزول منه بلا حبل!

* * *

رفض ابن الشامبيط الصعود إلى الدشرة. قرّر أن يعود بجثة أبيه إلى قريته السهليّة في يومه ذاك. حاول السكان عبثاً دعوته للاستراحة، ووضع الجثّة بالجامع للبركة.

وأمام رفضه كلّفوا مجموعة من أعيان الدشرة بأن ترافقه، وتحضر تشييع الجنازة. ذلك أقل ما يمكن أن يعملوه، حسب الأصول المتعارف عليها بين القرى. إن الميت كان ذاهباً إلى الدشرة زائراً وخاطباً. . . ولو تمّ له ذلك لأصبح صهراً مقرّباً! لكنه مات، وفي أراضي الدشرة! فلا بدّ إذن من القيام بالواجب. . .

الأخضر بن الجبايلي اعتذر بما تعرّض له من إرهاق في سبيل إنزال الجثة. . . وفعلاً كان في حالة إرهاق شديد! لذلك أعفي بإجماع السكّان من الذهاب مع جثة الشامبيط.

«أجله حضر! انتهى أمره. الميّت يستحق الرحمة. رحم الله الشامبيط. . .».

تلك كانت الكلمات التي علّق بها الناس على الحادث.

أما الأخضر بن الجبايلي فأضاف: «إنه لم يكتف بالشمبطة. أراد أن يورث ابنه من بعده! يتزوّج بالجازية!... لكن الأولياء كّرمهم الله رأوا ما فيه خير الدشرة... ابنه سوف يعود إلى أميركا. المدرسة وطن ثان»!

كان عايد مستنداً على حجر ملتصق بالجامع حائراً، لا يدري من أين يشد الخيط لبناء أجزاء هذه القصة الغريبة التي تجري أمامه!

رآه الأخضر بن الجبايلي، فاتجه إليه وأخذه من يده، وعادا إلى البيت.

بالمراح، نادى الأخضر بن الجبايلي:

ـ يا أهل الدار!

تعجّب عايد! لماذا ينادي هكذا؟ لا شكّ أن هناك أمراً ما؟

خرجت حجيلة ووراءها العجوز عائشة، بعدهما هادية. تكلّمت عائشة تخاطب الأخضر:

ـ ماذا تريد يا سيّد الرجال؟

ـ والجازية أين هي؟

صعق عايد! «الجازية؟...»

خرجت الجازية كالنور يرسل فجأة على مكان مظلم! كذلك خيّل لعايد... لم يستطع تثبيت نظره فيها. حسنها أقوى من قوّة بصره. كظم أنفاسه!

أشار الأخضر إلى عايد وهو يخاطب النساء:

ـ هذا ابن أعزّ رجل في الدنيا اليّ. إنه ابن السايح المنفي. أتتذكرينه يا سيّدة النساء؟

تكلمت العجوز عائشة والدهشة تملأ قلبها وصوتها معاً:

ـ ابن السايح ابن بو المحاين؟ يا للدنيا! كيف حال السايح يا ولدي؟ وما اسمك أنت؟

من الصعب على عايد أن يقول في ذلك المشهد المؤثّر أن أباه مات. لا، لن يقول لأحد. يقاسم الناس سروره لا أحزانه. قال بصوت منخفض:

ـ اسمي عايد.

ـ مرحباً بك وبعودتك يا ولدي! كلنا أهل وسهل لك!

تكلم الأخضر بن الجبايلي بلهجة الخطيب متجّهاً إلى الجازية:

ـ يا الجازية! أبو عايد من أصدقاء أبيك المخلصين. عايد جاء راغباً فيك. لكني كنت من قبل، أعربت عن رغبتي في خطبتك إلى الطيّب، وأنت تعلمين، وأمك هذه الصالحة تعلم وكل السكان يعلمون برغبتي. ولولاها لجئتك اليوم خاطباً له بنفسي. ماذا تقولين؟

حجيلة لم يرقها تماماً ما قاله أبوها. لم تكن تريد أن تسمع الجازية برغبة عايد فيها. كانت على علم بالأمر كما كان سائر السكان! أما عايد فشعر بحرج شديد.

رفعت الجازية رأسها في كبرياء. شعر عايد أنها كهالة من نور تملأ الدنيا. لا يستطيع النظر مواجهتها. حاول مع ذلك أن يملأ نظره منها. أليست هي التي جاء من أجلها؟ ألم يقض ما يقرب من يوم أمام دار أحد الرعاة ليراها... رأى وجهها شفافاً بشكل بديع، حتى لترى من ورائه جدران البيت! كما لو أنه من بلور. لكنه جزم في نفسه أن الجازية لم تخلق له!

أجابت الجازية بصوت فخم ممتلىء:

ـ الطيّب، طيّبه السجن. النفس تميل أحياناً عندما تهبّ عليها بعض النسيمات العليلة، كأغصان الصفصاف لكن الجذع يبقى ثابتاً... وأنت سألتني يا عم، وأنا أجيبك: الملح ما يدوّد!

أضافت العجوز عائشة تؤكّد قول الجازية:

ـ الزواج جذع والعواطف أغصان!

التفت الأخضر إلى عايد يسأله رأيه فيما سمع:

ـ وأنت ماذا تقول؟

كانت نظرات حجيلة حينئذ معلّقة به. قال عايد بصوت تعلوه مسحة من حزن لكنه قويّ مصمّم:

ـ الجازية حلم، والأحلام لا تتحقّق لكل الناس! وأنا يا عم، عاهدت أبي أن أعود. وقد عدت. وعاهدت أبي أن لا أزرع بذوري في الريح، ولكن في هذه التربة الطيّبة. وفي أول

يوم وصلت إلى هذه الدشرة شاءت الأقدار أن لا أتلاقى بالجازية، ولكن بحجيلة... فهل تقبلني يا عم، قريناً لها؟ وهل تقبلني هي؟ أريدها زوجة أسكن إليها، وأختاً تشدّ ازري في أوقات العواصف والأزمات، وبذلك أحقّق حلم أبي في العوده إلى عين الصفصاف والارتواء من مائها العذب، وحلمي انا في الزواج من أجمل فتيات الدنيا!

لم تخرج الكلمات من أفواه الحاضرين، خرجت بدلها الدموع! كان الجوّ مؤثّراً إلى درجة لم يكن معها ملائماً سوى الصمت.

ثم «انفجرت» الزغاريد، عزّزها الأخضر بن الجبايلي بطلقات من بندقيته، معلناً للملأ أن هذا البيت يعيش حدثاً عظيماً!

الجزائر في 16 شوال 1402 هـ
الموافق **6** آوت **1982** م

فهرس

في البداية كانت الحفلة عادية ، رقص وألحان فلكلورية ، وصيحات من الدراويش ، حيناً بعد آخر . . . لكن عندما شرع في تحمية المناجل أخذ الجو يتكهرب ، ووجوه الدراويش تكفهر !

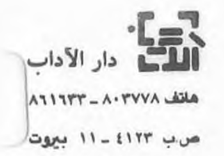
تحمى المناجل حتى تصير بيضاء . لمسة واحدة تجعل الجلد يلتصق بها ! لكن الدراويش يعرفون كيف يلمسونها ويلعقونها بألسنتهم ويمررونها على أذرعتهم العارية ! . . .

أثناء ذلك علت ضوضاء وهرج بين النساء ، اتجهت كل الأنظار إليهن مستفسرة متسائلة . . . لقد جاءت الجازية إلى « الحضرة » . الجازية التي تشبه الحلم ، والتي لم يتمكن أحد من القرويين أن يقترب منها ، جاءت إلى الحضرة !

جاءت ملثمة ، لكن نورها لم يحجبه لثام ، حسنها تيار متموج ، يهز القلوب . فاض جمالها على الساحة كما يفيض الفجر على الأفق .

علت صيحات الدراويش ، رهيبة ، تعالت المناجل اللحظة جد عظيمة ، وجد خطيرة ! الجازية أتت للحضرة .

تصميم الغلاف : نجاح طاهر


دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت